أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي الملقب مغيث الدين أحد الملوك السلجوقية المشاهير

وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته، وسيأتي ذكر جده وغيره منهم إن شاء الله تعالى، وتقدم طرف من خبره في ترجمة العزيز أبي نصر أحمد بن حامد الأصبهاني عم العماد الكاتب، تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده، وخطب له بمدينة بغداد على جاري عادة الملوك السلجوقية يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة في خلافة المستظهر بالله، وهو يومئذ في سن الحلم، وكان متوقدا ذكاء قوي المعرفة بالعربية، حافظا للأشعار والأمثال، عارفا بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وكان حيص بيص الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها:

ألق الحذائج ترعى الضمر القود
طال السرى وتشكت وخدك البيد
ياسارى الليل لاجدب ولافرق
فالنبت أغيد والسلطان محمود
قيل تألفت الاضداد خيفته
فالمورد الضنك فيه الشاء والسيد

وهي طويلة من غرر القصائد، وأجازه عليها جائزة سنية، وقد كان تزوج بنتي عمه سنجر المقدم ذكره حسبما شرحناه في ترجمة العزيز الأصبهاني، واحدة بعد الأخرى، وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له يوما بعض صناديق الخزانة حتى باعها، وصرف ثمنها في حاجته، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد ثم خرج منها، فمرض في الطريق واشتد به

المرض وتوفي يوم الخميس خامس شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

وذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه مات خامس عشر شوال سنة أربع وعشرين بباب أصبهان، ودفن بها، وولي السلطنة أخوه طغرلبك، ومات سنة سبع وعشرين، وتولى أخوه مسعود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وابنه محمد شاه بن محمود بن محمد هو الذي حاصر بغداد ومعه زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين صاحب إربل في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة.

وقال شيخنا ابن الاثير في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال ذلك في تاريخه الصغير المعروف بالأتابكي: ومات محمد شاه المذكور في ذي الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وتاريخ وفاة زين الدين المذكور مذكور في ترجمة ولده مظفر الدين صاحب إربل في حرف الكاف، ومات محمد شاه بباب همذان، ومولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر الملقب الملك العادل نور الدين

قد تقدم ذكر أبيه في حرف الزاي، ولما حاصر أبوه قلعة جعبر حسبما تقدم ذكره في ترجمته، كان ولده نور الدين المذكور في خدمته، فلما قتل أبوه سار نور الدين وفي خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني وعساكر الشام إلى مدينة حلب فملكها في ذلك التاريخ، وملك أخوه سيف الدين غازي المذكور في حرف الغين مدينة الموصل وماوالاها من تلك النواحي، ثم إنه نزل على دمشق محاصرا لها وصاحبها يومئذ مجير الدين أبو سعيد أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين، وهو أتابك الملك دقاق بن تتش المقدم ذكره في ترجمة تتش في حرف التاء، وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور وعوض مجير الدين أبق عوضا عن دمشق حمص، ثم أخذها وعوضه عنها بالس فانتقل إليها وأقام بها مدة، ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي، وكان أتابكه معين الدين بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين هناك أيضا، ثم استولى نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حماة وبعلبك،وهو الذي بنى سورها ومابين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا وتلك الأطراف، وكان فتحه مرعش في ذي القعدة من سنة ثمان وستين وخمسمائة والبهسنا في ذي الحجة من السنة، وافتتح أيضا من بلاد الفرنج حارم، وكان فتحها في أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وفتح عزاز وبانياس وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا، ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه المقدم ذكره إلى مصر ثلاث دفعات، وملكها السلطان صلاح الدين في الدفعة الثالثة نيابة عنه، وضرب باسمه السكة والخطبة، وهي قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها، وسيأتي ذلك في ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى، وكان ملكا عادلا زاهدا عابدا ورعا مستمسكا بالشريعة مائلا إلى

أهل الخير مجاهدا في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة، وقد تقدم ذلك في ترجمة الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري، ورتب له مايكفيه وبحماة الجامع الذي على ظهر العاصي، وجامع الرها، وجامع منبج، وبيمارستان دمشق، ودار الحديث بها أيضا، وله من المناقب والمآثر والمفاخر مايستغرق الوصف، وكان بينه وبين أبي الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الاسماعيلية، ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة، فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتابا يتهدده فيه ويتوعده لسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتا ورسالة وهما:

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا
لا قام مصرع جنبي حين تصرعه

قام الحمام إلى البازي يهدده
واستيقظت لأسود البر أضبعه

أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه
يكفيه ماقد تلاقي منه أصبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ماهددنا به من قوله وعمله، فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعد في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وماكان لهم من ناصرين، أو للحق يدحضون، وللباطل تنصرون(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وأما ماصدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أماني كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لاتزول بالاعراض، كما أن الأرواح لاتضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف، ودني وشريف، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن

والمعقولات، فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله:«ماأوذي نبي ماأوذيت» ولقد علمتم ماجرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ماحال، والأمر مازال ولله الحمد في الأولى والآخرة إذ نحن مظلومون لاظالمون، ومغصوبون لاغاصبون، وإذا جاء الحق (زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، ومايتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت قل (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين• ولن يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط، فهيء للبلايا جلبابا، وتدرع للرزايا أثوابا، فلأظهرن عليك منك، ولأغنينهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، «وماذلك على الله بعزيز» وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة، ورأيت في نسخة زيادة على هذا وهي:«فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، وأقرأ أول النحل، وآخر صاد» والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والله أعلم، ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الأبيات الثلاثة وهو:

يـــاللـــرجـــال لأمـــر هـــال مفظعـــه
مـــامـــر قـــط على سمعـــي تـــوقعـــه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه وقد جرت بينهما وحشة:

بنـانلـت هـذاالملـك حتـى تـأثلـت
بيـــوتـــك فيهـــاواشمخـــر عمـــودهـــا
فـأصبحـت تـرمينـابنبـل بنـااستـوى
مغـــارسهـــامنـــاوفينـــاحـــديـــدهـــا

وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة، وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة احدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بقلعة دمشق بعلة

الخوانيـق، وأشار عليـه الأطباء بـالفصد فـامتنع، وكـان مهيبا فما روجـع، ودفن في بيت بـالقلعة كان يلازم الجلـوس فيه والمبيت أيضا، ثـم نقل إلى تربتـه بمدرستـه التي أنشـأها عنـد باب سـوق الخواصين، وسمعت مـن جماعة من أهل دمشق يقولون ان الـدعاء عند قبره مستجاب ولقد جربت ذلك فصح رحمه الله تعالى.

وكان أسمر اللون، طـويل القامة، حسن الصورة، وليـس بوجهه شعر سوى ذقنـه، وكان قد عهـد بالملك إلى ولده الملـك الصالح عماد الـدين اسماعيل وعمـره يوم مات أبـوه إحدى عشرة سنة، فقـام بالأمر مـن بعده وانتقل مـن دمشق إلى حلـب، ودخل قلعتها يـوم الجمعة مستهـل المحرم سنـة سبعين وخمسمائة، وخرج السلطـان صلاح الـديـن من مصر وملـك دمشق وغيرهـا من بلاد الشـام ولم يبق عليه سـوى مدينة حلـب، ولم يزل الصالـح بها إلى أن توفي يـوم الجمعة الخامس والعشريـن من رجـب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة والله أعلم .

وكان مبدأ مـرضه في تاسع شهـر رجب من السنة المذكـوة، وحدث له قولنج في مستهـل جمادى الأولى، وكان لموته وقع عظيـم في قلوب الناس، وتـأسفوا عليـه لأنـه كان محسنـا محمـود السيرة ودفـن في المقام الـذي في القلعة، ثـم نقل إلى رباطه المعـروف به تحت القلعة، وهو مشهـور هناك، رحمه الله تعالى.

وتوفي مجير الـدين أبق المذكـور في سنة أربـع وستين وخمسمائة ببغداد، ودفن في داره، كذا وجدته في بعـض المسودات التي بخطي ، والله أعلم ، ومولـده يوم الجمعـة ثامـن شعبان سنـة أربع وثـلاثين وخمسمائة ببعلبك، والله تعالى أعلم.

أبو الفتح وأبو المظفر مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر أتابك صاحب الموصل الملقب عز الدين

قد تقدم خبر جده وجد أبيه وخبر ولده نور الدين أرسلان شاه وغيرهم من أهل بيته، وسيأتي ذكر أبيه في هذا الحرف إن شاء الله تعالى، ولما توفي والده قام بالملك ولده سيف الدين غازي المقدم ذكره لأنه كان أكبر الأخوة، وكان قد خلف هذين الولدين وعماد الدين زنكي صاحب سنجار المذكور عقيب ترجمة جده عماد الدين زنكي، وكان عز الدين المذكور مقدم الجيوش في أيام أخيه غازي، ولما خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود المقدم ذكره، وأخذ دمشق، وتقدم إلى حلب وحاصرها فخاف غازي منه، وعلم أنه قد استفحل أمره، وعظم شأنه، واستشعر أنه متى استحوذ على الشام تعدى الأمر إليه، فجهز جيشا عظيما، وقدم عز الدين مسعود المذكور، وسار يريد لقاء السلطان وضرب المصاف معه ليرده عن البلاد، فلما بلغ السلطان خروجه رحل عن حلب وذلك في مستهل رجب الفرد سنة سبعين وخمسمائة، وسار إلى حمص وأخذ قلعتها، وكان قد أخذ البلاد في جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد خروجه من دمشق قاصدا حلب، ووصل عز الدين مسعود إلى حلب لينجد ابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب هذا ماكان في الصورة الظاهرة، وفي الباطن كان غرضهم ماذكرناه من خوفهم على بلادهم، فانضم إلى عز الدين مسعود عسكر حلب، وخرج في جمع كثير، ولما عرف السلطان مسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد في أن يصالحوه فلم يفعلوا، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور لايشعرون بها، فقام المصاف بين العسكرين، وقضى الله تعالى أن انكسر جيش عز الدين وأسر السلطان جماعة من أمرائه، ثم أطلقهم وذلك يوم الأحد التاسع

عشر من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة، ثم سار السلطان عقيب الكسرة إلى حلب ونزل عليها وهي الدفعة الثانية، فصالحه الملك الصالح اسماعيل على أخذ المعرة وكفر طاب وبارين، ثم رحل عنها، وشرح ذلك يطول، وتتمة هذه القضية مذكورة في ترجمة أخيه سيف الدين غازي.

ولما توفي أخوه سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته استقل عز الدين المذكور بالملك من بعده، ولم يزل إلى أن حضرت الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الوفاة في التاريخ المذكور في ترجمة أبيه نور الدين، فأوصى بمملكة حلب وما معها لابن عمه عز الدين مسعود المذكور، واستحلف له الأمراء والأجناد، فلما توفي وبلغ الخبر عز الدين مسعود بادر متوجها إليها خوفا من صلاح الدين أن يسبقه فيأخذها، وكان وصوله إليها في العشرين من شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وصعد القلعة واستولى على مابها من الخزائن والحواصل، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة وأقام إلى سادس عشر شوال، ثم علم إنه لايمكنه حفظ الشام والموصل، وخاف من جانب صلاح الدين، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات وتبسطوا عليه في المطالب، وضاق عنهم عطنه، وكان المستولي على أمره مجاهد الدين قايمازالزيني المقدم ذكره في حرف القاف، فرحل عن حلب وخلف بها مظفر الدين ولده، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل المذكور في حرف الكاف، ولما وصل إلى الرقة لقيه بها أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فقرر معه مقايضة حلب بسنجار، وتحالفا على ذلك وسير عماد الدين من يتسلم حلب، وسير عز الدين من يتسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة صعد عماد الدين إلى قلعة حلب، وكان قد تقرر الصلح بين عزالدين المذكور وابن عمه الملك الصالح وبين صلاح الدين على يد قليج أرسلان صاحب الروم، وصعد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية واستناب بدمشق ابن أخيه عز

الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، فلما بلغه خبر وفاة الملك الصالح وهذه الأمور المتجددة عاد إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين، وبلغه بها أن رسول عز الدين مسعود وصل إلى الفرنج يحثهم على قتال السلطان ويبعثهم على قصده، فعلم أنه قد غدر به ونكث اليمين، فعزم على قصد حلب والموصل، وأخذ في التأهب للحرب، فبلغ عماد الدين صاحب حلب ذلك فسير إلى أخيه صاحب الموصل يعلمه ذلك ويستدعي منه العساكر، فسار السلطان صلاح الدين من دمشق ونزل على حلب في ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأقام عليها ثلاثة أيام ثم رحل في الحادي والعشرين من الشهر، ثم جاء مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وكان يوم ذلك في خدمة صاحب الموصل وهو صاحب حران، وكان قد استوحش من عز الدين مسعود صاحب الموصل، وخاف من مجاهد الدين قايماز الزيني المذكور في حرف القاف، فالتجأ إلى السلطان صلاح الدين، وقطع الفرات وعبر إليه وقوى عزمه على قصد بلاد الجزيرة وسهل أمرها عليه، فعبر السلطان صلاح الدين الفرات، وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج، ثم أشحن على بلاد الخابور وأقطعها، فأقام أياما وعلم أنه بلد عظيم لايتحصل منه شيء بالمحاصرة، وأن طريق أخذه أخذ قلاعه وبلاده وإضعاف أهله على طول الزمان، فرحل عنها ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان من السنة وأخذها في شهر رمضان المعظم، وأعطاها لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر المقدم ذكره، وشرح ذلك يطول، وخلاصة الأمر أنه رجع إلى الشام، فكان وصوله إلى حران في أول ذي القعدة، ثم عاد إلى منازلة الموصل وكان وصوله إليها في أول شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين، ونزلت إليه والدة عز الدين ومعها جماعة من نساء بني أتابك وابنة نور الدين أرسلان شاه بن مسعود، وقد سبق ذكره في حرف الهمزة، وطلبت منه المصالحة فردها خائبة ظنا منه إلى أن عز الدين أرسلها عجزا عن

حفظ الموصل، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك، وبذل أهل الموصل نفوسهم في القتال لكونه رد النساء والولد بالخيبة، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن ابراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده، وطمع فيه من جاوره من الملوك وعزموا على قصده فسير إلى السلطان وأطمعه في خلاط، وقرر معه تسليمها إليه وأن يعوضه عنها مايرضيه، وكانت وفاة شاه أرمن يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، فرحل السلطان صلاح الدين عن الموصل لهذا السبب في العشرين من الشهر المذكور، وتوجه نحو خلاط في مقدمته مظفر الدين، فنزلوا بالطوابة البليدة التي هي بالقرب من خلاط، وسير الرسل إلى بكتمر لتقرير القاعدة فوصلت الرسل إليه وشمس الدين بهلوان بن ألدكز صاحب أذربيجان وأران وعراق العجم قد قرب من خلاط ليحاصرها، فبعث إليه بكتمر يعرفه أنه إن لم يرجع عنه وإلا سلم البلاد إلى السلطان صلاح الدين فصالحه وزوجه ابنته ورجع عنه، وسير بكتمر إلى السلطان صلاح الدين يعتذر عما قاله من تسليم خلاط، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين يحاصرها فقاتلها قتالا شديدا، ثم أخذها عن صلح بالخديعة في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان صاحبها قطب الدين غازي بن ألبي بن تمرتاش بن غازي بن أرتق، فمات وتركها لولده حسام الدين يولق أرسلان وهو طفل صغير فطمع في أخذها من واليها، فأخذها ولما أيس السلطان من خلاط عاد إلى الموصل وهي الدفعة الثالثة، ونزل بعيدا عنها، بموضع يقال له كفر زمار، فأقام به مدة، وكان الحر شديدا فمرض السلطان مرضا شديدا أشفى على الموت، فرحل طالبا حران في مستهل شوال من السنة، ولما علم عز الدين مسعود المذكور بمرض السلطان وأنه رقيق القلب انتهز الفرصة وسير القاضي بهاء الدين بن شداد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الياء، ومعه بهاء الدين الربيب فوصلا إلى حران في الرسالة والتماس الصلح،

فأجاب إلى ذلك، وحلف يوم عرفة من السنة، وقد تماثل الصحة ولم يتغير عن تلك اليمين إلى أن مات رحمه الله تعالى، ثم رحل إلى الشام فأمن حينئذ عز الدين مسعود، وطابت نفسه، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة بعلة الاسهال، وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية فدفن بهذه المدرسة في تربة هي داخلها رحمه الله تعالى، ورأيت المدرسة والتربة وهي من أحسن المدارس والترب، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها وبينهما ساحة كبيرة، ولما مات خلف ولده نور الدين المذكور، وقد تقدم ذكره في حرف الهمزة، ولما مات نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمته خلف ولدين: أحدهما الملك القاهر عز الدين مسعود، والآخر المنصور عماد الدين زنكي، ولما حضرته الوفاة قسم البلاد بينهما فأعطى الملك القاهر، وهو الأكبر الموصل وأعمالها، وأعطى عماد الدين العمادية والعقر وتلك النواحي، فأما الملك القاهر، فكانت ولادته في سنة تسعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي بها فجأة يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة، وكان قد بنى مدرسة أيضا فدفن بها، وأما عماد الدين فإنه أخذ بعد موت أخيه الملك القاهر قلعة العمادية، ثم أخذت منه وهي من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل، وكذلك عدة قلاع مما يجاورها، وانتقل إلى إربل، وكان زوج ابنة مظفر الدين صاحب إربل، فأقام بها زمانا وكنا في جواره، وكان من أحسن الناس صورة، ثم قبض عليه مظفر الدين لأمر يطول شرحه، وسيره إلى سنجار إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فأفرج عنه الملك الأشرف، وعاد إلى إربل وقايضه مظفر الدين عن العقر بشهرزور وأعمالها، فانتقل إليها وأقام بها إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وستمائة، وخلف ولدا أقام بعده قليلا ثم مات رحمهما الله تعالى، ولما مات عز الدين مسعود بن أرسلان شاه خلف ولدين: نور الدين أرسلان شاه، وكان سمي عليا في حياة جده

أرسلان شاه، فلما مات جده نور الدين سموه باسمه، وناصر الدين محمود فتولى بعده نور الدين المذكور وكان تقدير عمره عشر سنين، وبقي بعد أبيه قليلا، وتوفي في بقية السنة، وتولى أخوه بعده ناصر الدين محمود، والمدبر لأمر المملكة بدر الدين لؤلؤ الذي ملك الموصل فيما بعد، وتوفي بهلوان بن ألدكز المذكور في سلخ ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتوفي والده شمس الدين ألدكز الأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتوفي والده شمس الدين ألدكز الأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بنقجوان، ودفن بها رحمه الله تعالى، وكان أتابك السلطان أرسلان شاه بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه بن محمد السلجوقي، وبعد ألدكز بمقدار شهر توفي أرسلان شاه المذكور بهمذان رحمه الله تعالى، وقتل قزل بن ألدكز المذكور في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وكان ملكا كبيرا وهو ابن ألدكز المذكور، رحمهم الله تعالى أجمعين، والله تعالى أعلم بالصواب.

أبو علي المنصور الملقب الآمر بأحكام الله بن المستعلي ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي المذكور قبله

وقد تقدم بقية نسبه، وذكر والده في الأحمدين في حرف الهمزة، وبويع الآمر بالولاية يوم مات أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته، وأقام بتدبير دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش المذكور في حرف الشين، وكان وزير والده، وقد ذكرنا في ترجمته طرفا من أخبار الأمير المذكور، ولما اشتد الآمر وفطن لنفسه قتل الأفضل حسبما تقدم شرحه، واستوزر المأمون أبا عبد الله محمد بن أبي شجاع فاتك البطائحي، فاستولى هذا الوزير عليه وقبح سمعته وأساء سيرته، ولما كثر ذلك منه قبض عليه الآمر أيضا ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، واستصفى جميع أمواله، ثم قتله في رجب سنة إحدى وعشرين وصلب بظاهر القاهرة وقتل معه خمسة من أخوته أحدهم يقال له المؤمن، وكان متكبرا متجبرا خارجا عن طوره وله أخبار مشهورة، وكان الآمر سيء الرأي جائر السيرة مستهتراً متظاهرا باللهو واللعب.

وفي أيامه أخذ الفرنج مدينة عكا في شعبان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، وكان أخذهم لها بالسيف ونهبوا مافيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها وكتب دار علمها وماكان في خزائن أربابها مالايحد ولايحصى، وعوقب من بقي من أهلها واستصفيت أموالهم، ثم وصلتها نجدة المصريين بعد فوات الأمر فيها، وفي هذه السنة ملكوا عرقة، وكان نزولهم عليها أول شعبان من السنة المذكورة، وفيها ملكوا بانياس وفيها تسلموا جبلة بالأمان وتسلموا قلعة تبنين يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ثم تسلموا مدينة صور يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وكان الوالي بها

من جهة الأتابك ظهير الدين طغتكين المذكور في حرف التاء في ترجمة تتش بن ألب أرسلان، وكان يومئذ صاحب دمشق وماوالاها، ولما ملكوا صور ضربوا السكة باسم الآمر المذكور مدة ثلاث سنين، ثم قطعوا ذلك، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ثلاث وخمسمائة بالسيف، وأخذوا صيدا لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسمائة.

وفي أيام الآمر أيضا سنة أربع وخمسمائة وقيل سنة إحدى عشرة والله أعلم قصد برديل الفرنجي الديار المصرية ليأخذها، وانتهى إلى الفرما ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها، ورحل عنها وهو مريض، فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش، فشق أصحابه بطنه، ورموا حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم، ورحلوا بجثته فدفنوها بقمامة، وسبخة برديل التي في وسط الرمل على طريق الشام منسوبة الى برديل المذكور والحجارة الملقاة هناك والناس يقولون هذا قبر برديل إنما هي هذه الحشوة، وكان برديل صاحب بيت المقدس وعكا ويافا وعدة بلاد من ساحل الشام، وهو الذي أخذ هذه البلاد المذكورة من المسلمين.

وفي هذه السنة أيضا خرج المهدي محمد بن تومرت المقدم ذكره من مصر، وصاحبها الآمر المذكور إلى بلاد المغرب في زي الفقهاء، وجرى له هناك ماسبق شرحه في ترجمته.

وكانت ولادة الآمر يوم الثلاثاء ثالث عشر محرم سنة تسعين وأربعمائة بالقاهرة، وتولى وعمره خمس سنين، ولما انقضت أيامه خرج من القاهرة صبيحة يوم الثلاثاء ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ونزل إلى مصر وعدى على جسر الجزيرة التي قبالة مصر، فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على قتله في السكة التي يمر فيها إلى فرن هناك، فلما مر بهم وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسيافهم، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عدة

قليلة من غلمانه وبطانته وخاصته وشيعته، فحمل في النيل في زورق، ولم يمت وأدخل القاهرة وهو حي وجيء به إلى القصر فمات من ليلته، ولم يعقب، وهو العاشر من أولاد المهدي عبيد الله القائم بسجلماسه المقدم ذكره، وانتقل الأمر إلى ابن عمه الحافظ عبد المجيد المقدم ذكره رحمهم الله تعالى.

وكان قبيح السيرة ظالما للناس يأخذ أموالهم ويسفك دمائهم، وارتكب المحظورات، واستحسن القبائح فابتهج الناس بقتله، وكان ربعة شديد الأدمة جاحظ العينين حسن الخط والمعرفة والعقل، وأما المأمون ابن البطائحي الوزير المذكور فهو الذي بنى الجامع الأقمر بالقاهرة سنة خمس عشرة وخمسمائة، وكان الأفضل ابن أمير الجيوش قد شرع في عمارة جامع النيل بظاهر مصر عند الرصد المطل على بركة الحبش في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ولم يكمله فأكمله المأمون بعده في مدة وزارته والله أعلم.

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر المعروف بالأعرج صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر طرف من خبره في ترجمة أخيه نور الدين محمود صاحب الشام، وذكر أولاده الثلاثة وهم سيف الدين غازي الذي تولى السلطنة بعده، وعز الدين مسعودوعمادالدين زنكي صاحب سنجار، واستوعبت في ترجمة غازي ماجرى من نور الدين عقيب موت قطب الدين، وأنه قصد الموصل، ثم قرر أمر غازي المذكور فيها ورتب أحوال أولاد أخيه كلهم، وفي تلك السفرة بنى نور الدين الجامع النوري داخل الموصل، وهو مشهور هناك تقام فيه الجمعة، وكان سبب عمارته ماحكاه العماد الأصبهاني في البرق الشامي عند ذكره لوصول نور الدين إلى الموصل أنه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة، وقد أشاعوا عنها ما ينفر القلوب منها وقالوا: ماشرع في عمارتها إلا من ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدولة عمرالملاء وكان من كبار الصالحين بابتناء الخربة، وبنى بها جامعا وأنفق فيها أموالا جزيلة، ووقف على الجامع ضيعة من ضياع الموصل، وكان قطب الدين قد تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد عقيب موت أخيه سيف الدين غازي الأكبر المقدم ذكره أيضا، وكان حسن السيرة عادلاً في حكمه، وفي دولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الأصبهاني المعروف بالجواد المقدم ذكره، وهو الذي قبض عليه حسبما سبق شرحه، وكان مدبر دولته وصاحب رأيه الأمير زين الدين علي كجك، والد مظفر الدين صاحب إربل، وكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده، مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة، وقد تقدم أيضا ذكره في ترجمة ولده مظفر الدين في حرف الكاف، ولم يزل قطب الدين المذكور على سلطنته ونفاذ كلمته إلى أن توفي في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة وقيل في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة.

وذكر أسامة بن منقذ في كتاب له صغير ذكر فيه من أدركه في عمره من ملوك البلاد أن قطب الدين المذكور توفي سلخ شهر ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة، وليس بصحيح فإن أخاه نور الدين كان بالموصل في شهر ربيع الآخر، وجاءته رسل الخليفة وهو مخيم على الموصل في الشهر المذكور، ولم يتوجه نور الدين إليها إلا بعد وفاة أخيه قطب الدين، وكانت وفاته بالموصل ومدة عمره أكثر من أربعين سنة بقليل، وخلف عدة أولادة وأكثرهم ملك البلاد، وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجماعة من أهل بيته رحمهم الله كلهم.

opeikandl.com

أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب الملقب الملك الأشرف مظفر الدين

أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرها سيره إليها والده من الديار المصرية في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ثم أضيفت إليه حران، وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب من يومه لقي نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل المذكور في حرف الهمزة، وكان يوم ذاك من الملوك المشاهير الكبار وتواقعا في مصاف فكسره، وذلك في سنة ستمائة وهي وقعة مشهورة، فلا حاجة إلى تفصيلها، ولما توفي أخوه الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب خلاط وميا فارقين وتلك النواحي، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافة إلى ملكه، وذلك في سنة تسع وستمائة، وكان الملك الأوحد قد ملك خلاط في سنة أربع وستمائة، فاتسعت حينئذ مملكته وبسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحسانا لم يعهدوه ممن كان قبله، وعظم وقعه في قلوب الناس وبعد صيته، وكان قد ملك نصيبين الشرق في سنة ست وستمائة، وأخذ سنجار سنة سبع، وكذلك الخابور، وملك معظم بلاد الجزيرة، وكان يتنقل فيها، وأكثر إقامته بالرقة لكونها على الفرات.

ولما مات ابن عمه الملك الظاهر صاحب حلب في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الغين عزم عز الدين كيكاوس صاحب الروم على حلب، فسير أرباب الأمر بحلب إلى الملك الأشرف وسألوه الوصول إليهم لحفظ البلد فأجابهم إلى سؤالهم وتوجه إليهم ، وأقام باليا روقيه بظاهر حلب مدة ثلاث سنين، وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك الأفضل صاحب سميساط وقائع مشهورة لاحاجة إلى الإطالة في شرحها، ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة ست عشرة وستمائة حسبما شرحناه في ترجمة الملك الكامل توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية لانجاد الملك الكامل، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما، فجاءه

أخوه الملك المعظم المقدم ذكره في حرف العين بنفسه وأرضاه، ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه فصادف عقيب وصوله إليها انتصار المسلمين على الفرنج وانتزاع دمياط من أيديهم، وكانوا يرون ذلك بسبب من غرته.

ولما مات الملك المعظم في التاريخ المذكور في ترجمته، قام بالأمر من بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، فقصده عمه الملك الكامل من الديار المصرية ليأخذ دمشق منه، فاستنجد بعمه الملك الأشرف، وكان يومئذ ببلاد المشرق، فوصل إليه واجتمع به بدمشق، ثم خرج منها متوجها إلى أخيه الملك الكامل واجتمع به، وجرى الاتفاق بينهما على أخذ دمشق من الملك الناصر وتسليمها إلى الملك الأشرف، ويبقى للملك الناصر الكرك والشوبك ونابلس وبيسان وتلك النواحي، وينزل الملك الأشرف عن حران والرها وسروج والرقة ورأس عين ويسلمها إلى الملك الكامل، فاستتب الحال على ذلك ، وتسلم الملك الأشرف دمشق لاستقبال رجب سنة ست وعشرين وستمائة، وانتقل الملك الكامل إلى بلاده التي تسلمها بالشرق ليكشف أحوالها ويرتب أمورها، واجتزت في التاريخ المذكور بحران وهو بها، وانتقل الأشرف إلى دمشق واتخذها دار إقامة وأعرض عن بقية البلاد، ونزل جلال الدين خوارزم شاه على خلاط وحاصرها وضايقها أشد مضايقة وأخذها في سنة ست وعشرين من نواب الملك الأشرف، وهو مقيم بدمشق، ولم يمكنه في ذلك الوقت قصدها للدفع عنها لاعذار كانت له، ثم عقيب ذلك دخل إلى بلاد الروم بالاتفاق مع سلطانها علاء الدين كيقباذ أخي عز الدين كيكاوس المذكور، وتظافرا على قصد خوارزم شاه، وضرب المصاف معه، فإن صاحب الروم أيضاً كان يخاف على بلاده منه لكونه مجاوره، فتوجها نحوه في جيش عظيم من جهة الشام والشرق في خدمة الملك الأشرف وعسكر صاحب الروم، والتقوا بين خلاط وأرزنكان بموضع يقال له باسى حمارة في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة،

وانكسر خوارزم شاه وهي وقعة مشهورة، وعادت خلاط إلى الملك الأشرف وقد خربت، ثم رجع إلى الشام وتوجه إلى الديار المصرية وأقام عند أخيه الملك الكامل مدة، ثم خرج في خدمته قاصدين آمد، ونزلوا عليها وفتحوها في مدة يسيرة ، وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة، وأضافها الملك الكامل إلى مملكته ببلاد الشرق، ورتب فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب المذكور في ترجمة والده، وفي خدمته الطواشي شمس الدين رضوان الخادم العادلي ثم عاد كل واحد إلى بلاده، ثم كانت واقعة ببلاد الروم وهي مشهورة، ورجع الكامل والأشرف ومن معهما من الملوك بغير حصول مقصود، ولما رجعا خرج عسكر صاحب الروم على بلاد الكامل بالشرق فأخذها وأخربها، ثم عاد الكامل والأشرف وأتباعهما ومن معهما من الملوك إلى بلاد الشرق واستنقذوها من نواب صاحب الروم، ثم رجعوا إلى دمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكنت يومئذ بدمشق في تلك السفرة، ورأيت الكامل والأشرف وكانا يركبان معا ويلعبان بالكرة بالميدان الأخضر الكبير كل يوم، وكان شهر رمضان، وكانا يقصدان بذلك تعبير النهار لأجل الصوم، ولقد كنت أرى من تأدب كل واحد منهما مع الآخر شيئاً كثيراً، ثم وقعت بينهما وحشة، وخرج الأشرف عن طاعة الكامل، ووافقته الملوك بأسرها، وتعاهد هو وصاحب الروم وصاحب حلب وصاحب حماه وصاحب حمص وأصحاب الشرق على الخروج على الملك الكامل، ولم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية، فلما تحالفوا وتحزبوا و اتفقوا على الخروج على الملك الكامل، مرض الملك الأشرف مرضا شديداً وتوفي يوم الخميس رابع المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة بدمشق ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى التربة التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالديار المصرية بالقاهرة، وقيل بقلعة الكرك رحمه الله تعالى، هذه خلاصة أحواله، وكان سلطاناً

كريما حليما واسع الصدر كريم الاخلاق، كثير العطاء لايوجد في خزائنه شيء من المال مع اتساع مملكته، ولا تزال عليه الديون للتجار وغيرهم، ولقد رأى يوماً في دواة كاتبه وشاعره الكمال أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن النبيه المصري قلما واحداً فأنكر عليه ذلك، فأنشده في الحال دوبيت

قال الملك الأشرف قولا رشدا
أقلامك ياكمال قلت عددا
جاوبت لعظم كتب ما تطلقه
تحفى فتقط فهي تفنى أبدا

وطرب ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاهي، فقال لصاحب الملهى: تمن علي، فقال تمنيت مدينة خلاط فأعطاها، وكان نائبه بها الأمير حسام الدين المعروف بالحاجب علي بن حماد الموصلي، فتوجه ذلك الشخص إليه ليتسلمها منه فعوضه الحاجب عنها جملة كثيرة من المال وصالحه عنها، وكان له في ذلك غرائب، وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح، ويحسن الاعتقاد فيهم، وبنى بدمشق دار حديث فوّض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين عثمان المعروف بابن الصلاح المقدم ذكره.

وكان بالعقيقة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجاري قد جمع أنواع أسباب الملاذ، ويجرى فيه من الفسوق والفجور ومالاً يحدّ ولا يوصف، فقيل له عنه إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين فهدمه وعمره مسجداً جامعا غرم عليه جملة مستكثرة، وسماه الناس جامع التوبة، كأنه تاب إلي الله تعالى وأناب مما كان فيه، وجرت في خطابته نكتة لطيفة أحببت ذكرها وهي أنه كان بمدرسة ست الشام التي خارج البلد إمام يعرف بالجمال البستي،أعرفه شيخا حسناً، ويقال كان في صباه يلعب بشيء من الملاهي، وهي التي تسمى الجغانة، ولما كبر حسنت طريقته، وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدوداً في الاخيار، فلما

احتاج الجامع المذكور إلى خطيب ذكر للملك الأشرف جماعة وشكر الجمال المذكور، فتولى خطابته، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ، وكان يتهم باستعمال الشراب، وكان صاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب، فكتب إليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زوتينية الرحبي أبياتاً وهي:

يا مليكاً أوضح الحـ
ـق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد
قلدني منه أمانه
قال قل للملك الصا
لح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يا من
حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في
ضر وبؤس وإهانه
لي خطيب واسطي
يعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبـ
ـل يغني بجغانه
فكما نحن فما زلـ
ـنا ولا أبرح حانه
ردني للنمط الأو
ل واستبق ضمانه

وهذه الأبيات في بابها في غاية الظرف، وكان الرحبي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية في رسالة من عند صاحب حمص، وأنشدني هذه الأبيات وحكى السبب الحامل عليها، وذلك في بعض شهور سنة سبع وأربعين وستمائة.

ومدح الملك الأشرف أعيان شعراء عصره وخلدوا مدائحه في دواوينهم، فمنهم شرف الدين محمد بن عنين وقد سبق ذكره، والبهاء أحمد النجار وقد سبق ذكره أيضاً والشرف راجح الحلي، وقد ذكرته في ترجمة الملك الظاهر، والكمال بن النبيه المذكور، وكانت وفاته سنة تسع عشرة وستمائة بمدينة نصيبين الشرق، وعمره تقديراً مقدار ستين سنة، كذا أخبرني صهره بالقاهرة، والمهذب محمد بن أبي الحسين بن يمن بن علي بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الحميد الأنصاري، المعروف بابن الاردخل الموصلي الشاعر المشهور، ومولده سنة سبع وسبعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وستمائة بميافارقين رحمه الله تعالى.

ياروق بن أرسلان التركماني

كان متقدما جليل القدر في قومه، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطىء قويق فوق تل مرتفع هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة وعمائر متسعة، وتعرف الآن باليارقية، وهي شبه القرية وسكنها هو ومن معه وهي إلى اليوم معمورة مسكونة آهلة يتردد إليها أهل حلب في أيام الربيع، ويتنزهون هناك في الخضرة على قويق وهو موضع كثير الانشراح والأنس، وتوفي ياروق المذكور في المحرم عام أربع وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى، هكذا ذكره بهاء الدين المعروف بابن شداد في سيرة السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى.

وياروق بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة، ثم واوساكنة، وفي الآخر قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع، وينقطع في الصيف وقد ذكرته الشعراء في أشعارهم كثيراً خصوصاً أبا عبادة البحتري فإنه كرر ذكره في عدة قصائد فمن ذلك قوله في جملة قصيدة:

يا برق أسفر عن قويق فطرتي
حلب فأعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغة
في كل ناحية ومجنى الآس
أرض إذا استوحشت ثم أتيتها
حشدت عليّ فاكثرت ايناسي (٤)

وبطياس بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها، وبعد الألف سين مهملة، وهي قرية كانت بظاهر حلب،

ودثرت، ولم يبق لها اليوم أثر، وكان صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب رضي الله عنهم قد بنى بها قصراً، وسكنه هو وبنوه وهو بين النيرب والصالحية وهما قريتان في شرق حلب، وكان القصر على الرابية المشرفة على النيرب، ولم يبق منه في هذا الزمان سوى آثار دارسة، هكذا وجدته مضبوطا بخط بعض الفضلاء من أهل حلب، والله تعالى أعلم .

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد ابن عتاب الأسدي قاضي حلب المعروف بابن شداد الملقب ببهاء الدين الفقيه الشافعي

توفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم، وكان شداد جده لأمه، وكان يكنى أولا أبا العز، ثم غير كنيته وجعلها أبا المحاسن كما ذكرته، ولد بالموصل ليلة العاشر من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وحفظ بها القرآن الكريم في صغره، ثم قدم الشيخ أبو بكر يحيي بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي المقدم ذكره إلى الموصل فلازمه، وقرأ عليه بالطرق السبع، وأتقن عليه القراءات

قال أبو المحاسن المذكور في بعض تواليفه، أول من أخذت عنه شيخي الحافظ ضياء الدين أبو بكر يحيي بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، رحمه الله تعالى، فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة، فقرأت عليه معظم مارواه من كتب القراءات وقراءة القرآن العظيم ورواية الحديث وشروحه والتفسير، حتى كتب لي خطه بذلك وشهد لي بأنه ماقرأ عليه أحد أكثر مما قرأت، وعندي خطه بجميع ما قرأته عليه في قريب من كراسين، وفهرست مارواه جميعه عندي، وأنا أرويه عنه ومما يشتمل عليه الفهرست البخاري، ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث وغالب كتب الأدب وغيره، وآخر روايتي عنه شرح الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام قرأته عليه في مجالس آخرها في العشر الأخير من شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة، قلت: وهي السنة التي مات فيها الشيخ القرطبي حسبما ذكرته في ترجمته.

ثم قال: ومنهم الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن الشيرجي، سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي، وأجازني أن

أروي عنه جميع ماارواه على اختلاف أنواع الروايات، وكتب لي خطه بذلك في فهرست سماعي مؤرخاً بخامس جمادى الأولى سنة ست وستين وخمسمائة، وكان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه، ولي قضاء البصرة ودرس بالأتابكية القديمةيعني بالموصل.

ومنهم الشيخ مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب بالموصل، وهو مشهور بالرواية حتى يقصد لها من الآفاق، وعاش نيفاً وتسعين سنة، قلت: وكانت ولادة أبي الفضل ابن الطوسي الخطيب المذكور في منتصف صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ببغداد بباب المراتب، وتوفي ليلة الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بمقبرة باب الميدان رحمه الله تعالى.

رجعنا إلى تتمة كلام أبي المحاسن بن شداد: وسمعت عليه يعني على الخطيب المذكور كثيرا من مسموعاته وأجاز لي جميع ماارواه في السادس والعشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ومنهم القاضي فخر الدين أبو الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري سمعت عليه مسند الشافعي رضي الله عنه، ومسند أبي عوانة ومسند أبي يعلى الموصلي، وسنن أبي داود، وكتب لي خطه بذلك وهو في فهرستي، وسمعت عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي وأجاز لي رواية ماارواه، وكتب لي خطه بذلك في شوّال سنة سبع وستين وخمسمائة، ومنهم الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي، وأجاز لي جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه، وفي فهرستي خطه بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وفهرسته عندي بذلك.

قلت: توفي أبو محمد عبد الله الأشيري المذكور في شوّال سنة إحدى وستين وخمسمائة بالشام، ودفن ببعلبك ظاهر باب حمص شمالي البلد.

ومنهم الحافظ سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجياني قرأت عليه صحيح مسلم من أوله إلى آخره بالموصل، والوسيط للواحدي وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فهذه أسماء من حضر في خاطري، وقد سمعت من جماعة لم تخضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب كشهدة الكاتبة في بغداد وأبي الغيث في الحربية، والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية، وجماعة شذت عني طرقهم، فلم أذكرهم إذ كان في هؤلاء غنية.

هذا آخر ما ذكره عن نفسه وقال غيره: إنه قرأ الفقه على أبي البركات عبد الله بن الشيرجي المذكور، فقيه الموصل، وكان عالماً زاهداً متقشفاً وتوفي في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بظاهرها، ثم اشتغل بالخلاف على الضياء بن أبي حازم صاحب محمد ابن يحيى الشهيد النيسابوري، ثم باحث في الخلاف متفنني أصحابه كالفخر النوقاتي والبروي والعماد النوقاتي والسيف الخواري والعماد المنابجي، ثم انحدر إلى بغداد بعد التأهل التام، ونزل بالمدرسة النظامية وترتب فيها معيدا بعد وصوله إليها بقليل، وأقام معيداً نحو أربع سنين والمدرس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبيد الله بن محمد الشاشي، وكانت ولاية ابن الشاشي المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، وعزل عنها في سلخ شهر رجب سنة تسع وستين وتولاها بعده رضي الله عنه أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزويني في التاريخ المذكور، وأبو المحاسن المذكور مستمر بها على الإعادة، وكان رفيقه في الاعادة السيدمحمد السلماسي،وقد تقدم ذكره، ثم أصعد إلى الموصل في سنة تسع وتسعين، فترتب مدرسا في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري المقدم ذكره، ولازم الاشتغال، وانتفع به جماعة، وله كتاب في الأقضية سماه ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، ذكر في أوائله أنه حج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام بعد الحج

والزيارة للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب، فذكر أنه سمع بوصوله فاستدعاه إليه فظن أنه يسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الدين المقدم ذكره، فإنه كان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين، وقتل على جبل عرفات لأمر يطول شرحه وليس هذا موضع ذكره، فلما دخل عليه ذكر أنه قابله بالاكرام التام، ووما زاد على السؤال عن الطريق، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري وأنه قرأه عليه بنفسه، فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الأصبهاني وقال له: السلطان يقول لك إذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فعرفنا بذلك فلنا إليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة، فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدّة كتابا يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوي على مقدار ثلاثين كراسة، فخرج إليه واجتمع به بقلعة حصن الأكراد وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال إنه كان عزم على الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل إذا وصل إليها.

ثم إنه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، ولما كنت متولي الحكم بدمشق المحروسة جاءني في بعض شهور سنة ست وستين وستمائة اسجال قد ثبت مضمونه عند القاضي أبي المحاسن المذكور، وهو يومئذ قاضي العسكر الصلاحي، وقد انقطع ثبوته بموت شهوده فتعذر إثباته عندي لذلك وتأملته إلى آخره لأنني استغربته، فقد كان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته.

عدنا إلى بقية ما ذكره أبو المحاسن المذكور فقال : إنه كان قد حضر إلى خدمة صلاح الدين في صحبة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل، والقاضي محيي الدين بن الشهرزوري لما وصلا إليه

في رسالة، واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس ، كان بمصر في مدرسة منازل العز، وخطيب مصر، وأن صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة المذكورة فلم يفعل، وأنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران، وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ، وذكر أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين، وتحليف بعضهم لبعض، وأن الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب كتب إلى أخيه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه، فأجابه إلى ذلك، فأرسله الظاهر إلى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين بن صلاح الدين، وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك، فلما عاد من هذه الرسالة، كان القاضي بحلب قد مات فعرض عليه فأجاب، هكذا ذكره في كتاب ملجأ الحكام.

وذكر القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم في تاريخه الصغير الذي سماه زبدة الحلب من تاريخ حلب ما مثاله، وفي سنة إحدى وتسعين يعني وخمسمائة اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر، وقدم إليه إلى حلب، وولاه قضاءها ووقوفها وعزل عن قضائها زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي نائب محيي الدين بن الزكي، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشاورة. انتهى كلامه.

قلت: وهذا القاضي نبأ هو ابن الفضل بن سليمان الحميري يعرف بيتهم بدمشق ببيت البانياسي، وكان السلطان صلاح الدين قد ولى القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن الزكي الدمشقي المقدم ذكره القضاء بحلب، فاستناب فيها زين الدين نبأ بن البانياسي المذكور، واستمر بها إلى التاريخ المذكور، وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة

المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان الملك الظاهر قد قرر له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، ولم يكن له خرج كثير فإنه لم يولد له، ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى للشافعية، ورأيت تاريخ عمارتها مكتوبا على سقف مسجده وهو الموضع المعد لإلقاء الدروس، وذلك في سنة احدى وستمائة، ثم عمر في جوارها داراً للحديث النبوي ، وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها، ولها بابان باب إلى المدرسة، وباب إلى دار الحديث وشباكان إلى الجهتين، وهما متقابلان بحيث أن الذي يقف في أحد المكانين يرى من يكون في المكان الآخر، ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد، وحصل بها الاشتغال والاستفادة، وكثر الجمع بها، وكان بين والدي رحمه الله تعالى وبين القاضي أبي المحاسن المذكور موانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من زمن الاشتغال بالموصل، فجئت إليه وكان أخي قد سبقني بمدة قليلة، وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين رحمه الله تعالى، المقدم ذكره في حرف الكاف كتابا بليغاً في حقنا يقول فيه: أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين، وإنهما ولدا أخي، وولدا أخيك ولاحاجة مع هذا إلى تأكيد وصية ، وأطال القول في ذلك، فتفضل القاضي أبو المحاسن وتلقانا بالقبول والإكرام، وأحسن حسب الامكان، وعمل ما يليق بمثله وأنزلنا في مدرسته، ورتب لنا أعلى الوظائف، وألحقنا بالكبار مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال،وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخوله إلى حلب فأغنى عن الاعادة، ولم نزل عنده إلى أن توفي في التاريخ الآتي ذكره، ولم يكن في مدرسته في ذلك الزمان درس عام لأنه كان المدرس بنفسه، وكان قد طعن في السن وضعف عن الحركة وحفظ الدروس والقائها، فرتب أربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الإعادة، والجماعة

يشتغلون عليهم وكنت أنا وأخي نقرأ على الشيخ جمال الدين أبي بكر الماهاني لأنه كان من بلدنا، ورفيق والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين أبي حامد محمدبن يونس المقدم ذكره،فمات في ثالث شوّال سنة سبع وعشرين وستمائة وقد نيف على ثمانين سنة، فترددت إلى الشيخ نجم الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز الموصلي الفقيه الإمام، وهو إذ ذاك مدرس المدرسة السيفية، فقرأت عليه من أول كتاب الوجيز للغزالي إلى الإقرار، وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده لسبب اتصال الكلام.

وكان القاضي أبو المحاسن المذكور بيده حل الأمور وعقدها، لم يكن لأحد معه في الدولة كلام، وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر محمد ابن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين، وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه ومتولي أمور الدولة باشارة القاضي أبي المحاسن لايخرج عنهما شيء من الأمور، وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة، خصوصاً جماعة مدرسته، فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه، وكنا نسمع عليه الحديث ونتردد إليه في داره، وقد كانت له قبة تختص به وهي شتوية لايجلس في الصيف والشتاء إلا فيها لأن الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف لايقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة، وكانت النزلات تعتريه في دماغه فلا يفارق تلك القبة، وفي الشتاء يكون عنده منقل كبير عليه من الفحم والنار شيء كثير، ومع هذا كله لا يزال مزكوما وعليه الفرجية البرطاسي والثياب الكثيرة وتحته الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخينة بحيث كنا نجد عنده الحر والكرب، وهو لايشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف، وكان لايخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ وإذا قام إلى الصلاة بعد التجهد يكاد يسقط، ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة كأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما، وكان عقيب صلاة الجمعة

يسمع المصلون عنده الحديث عليه، وكان يعجبه ذلك، وكان حسن المحاضرة جميل المذاكرة، والأدب غالب عليه، وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه:

إن السلامة من ليلى وجارتها
أن لا تمر على حال بناديها

وكان يتمثل أيضاً كثيرا بقول صردر الشاعر المقدم ذكره في حرف العين، وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة وهو:

وعهودهم بالرمل قد نقضت
وكذاك ما يبنى على الرمل

فأنشده في بعض الأيام فقال له بعض الحاضرين: يا مولانا قد استعمل ابن المعلم العراقي هذا المعنى استعمالا مليحا فقال: ابن المعلم هو أبو الغنائم؟ فقال: نعم فقال: صاحبنا كان، فكيف قال فأنشده:

نقضوا العهود وحق ما يبنى على
رمل اللوى بيد الهوى أن ينقضا

فقال: ما أقصر، ولقد تلطف في قوله: «بيد الهوى» فقال له: يا مولانا، وقد استعمله في قصيدة أخرى، فقال: هات، فأنشده

ولم يبن على الرمل
فكيف انتقض العهد

فاستحسنه.

وكان كثيراً ما ينشد أبيات أبي الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص بيص المقدم ذكره، وكان يقول إنه سمعها منه ويرويها عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة الحيص بيص فأغنى عن الإعادة وأولها:

لا تضع من عظيم قدر وان كنـ
ـت مشاراً إليه بالتعظيم

وكان يقول: أنشدني القاضي الفاضل لبعضهم ونحن نزول على قلعة صفد:

قلت للنزلة لما
أن ألمت بلهاتي
بحياتي خل حلقي
نهر دهليز حياتي

قلت: هذان البيتان منسوبان إلى ابن الهبارية المقدم ذكره والله أعلم

وكان كلما نظر إلى نفسه على تلك الحالة من الضعف والعجز عن القيام والقعود والصلاة وسائر الحركات ينشد:

من يتمن العمر فليدرع
صبرا على فقد احبائه
ومن يعمر في نفسه
ما يتمناه لأعدائه

ثم وجدت هذين البيتين للظهير أبي اسحق ابراهيم بن نصر بن عسكر قاضي السلامية المقدم ذكره في هذا الكتاب، والله أعلم.ذكر ذلك صاحبنا الكمال بن الشعار الموصلي في كتابه عقود الجمان في ترجمة الظهير المذكور، وهذا ينظر إلى قول أبي العلاء المعري

تدعو بطول العمر أفواهنا
لمن تناهى القلب في وده
يسر إن مد بقاء له
وكل ما يكره في مده

والأصل في هذا قول الآخر:

كانت قناتي لا تلين لغامز
فألانها الإصباح والامساء

ودعـــوت ربي بـــالســـلامـــة جـاهـــداً
ليصحنـــــي فـــإذا الســـــلامـــــة داء

ودخل عليه يوماً رجل من أهل المغرب يقال له: أبو الحجاج يوسف، وكـان قريـب العهد ببـلاده، ورد حلب في تلـك الأيام وكـان فاضـلا في الأدب والحكمة، فلما رآه على تلك الهيئة من الهزال والنحافة أنشده:

لـــو يعلـــم النـــاس مـــا في أن تعيـــش لهم
بكـــوا لأنـــك مـــن ثـــوب الصبـــا عـــاري

ولـــو أطـــاقـــوا انتقـــاصـــا مـــن حيـــاتهم
لما فـــــــــــــــدوك بشيء غير أعمار

فأعجبه ذلك ودمعت عيناه، وشكر له.

وقال لي بعض أصحـابنا: سمعته يوما وهو يحكـي للجماعة الحاضرين عنده، قال: لما كنـا في المدرسة النظامية ببغداد اتفق أربعـة أو خمسة من الفقهاء المشتغلين على استعمال حب البلاذر لأجـل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعـوا ببعض الأطبـاء وسألوه عـن مقدار مـا يستعمل الانسـان منه، وكيف يستعمله، ثم اشتروا القدر الـذي قال لهم الطبيب الجاهل وشربوه في موضـع خارج عـن المدرسة، فحصل لهم الجنـون، وتفرقـوا وتشتتوا ولم يعلم مـا جرى عليهـم، وبعد أيـام جاء إلى المدرسـة واحد منهـم، وكان طويلاً وهو عريان ليس عليـه شيء يستر عورته، وعلى رأسه بقبار كبير له عذبة طويلة خارجة عن العـادة، وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه وهو ساكـت ساكن عليـه السكينة والوقار لا يتكلـم ولا يعبث، فقام إليـه من كان حـاضراً من الفقهـاء وسألـوه عن الحال فقـال لهم: كنا قـد اجتمعنا وشربنا حـب البلاذر، فـأما أصحابي فـانهم جنوا ومـا سلم منهـم إلا أنا وحدي وصار يظهـر العقل العظيم والسكون وهم يضحكـون منه وهو لا يشعر بهم ويعتقد أنـه سالم مما أصاب أصحابه، وهـو على تلك الحالة لا يفكر فيهم، ولا يلتفت إليهم.

وأخبرني جماعة ممن كانوا عنده قبل وصولنا إليه أنه قدم عليه الأديب نظام الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن مسعود القيسي القرطبي المعروف بابن خروف الشاعر المشهور، فكتب إليه رسالة، وفي أولها أبيات يستجديه فروة قرظ(٥) وهي:

بهاء الدين والدنيا
ونور المجد والحسب

طلبت مخافة الأنواء
من نعماك جلد أبي
وفضلك عالم أني
خروف بارع الأدب
حلبت الدهر أشطره
وفي حلب صفا حلبي

ذو الحسب الباهر، والنسب الزاهر، يسحب ذيول سير السرى، ويحب النجاة من أجل الفرا، ويمن على الخروف النبيه بجلد أبيه، قاني الصباغ، قريب عهد بالدباغ، ماضل طالب قرظة ولا ضاع، بل ذاع ثناء صانعه وضاع، أثيث خمائل الصوف، يهزأ من الرياح بكل هو جاء عصوف، إذا ظهر إهابه يخافه البرد ويهابه، مافي الثياب له ضريب، إذا نزل الجليد والضريب، ولا في اللباس له نظير إذا عري من ورقه الغصن النضير، لا كطيلسان ابن حرب، ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، كأنه من جلد حمل الحرباء، الذي يراعي البدر والنجم، لا من جلد السخلة الجرباء، التي ترعى الشجر والنجم، فرجي النوع، أرجي الضوع لتكون تارة حافا، وتارة بردا وهو في الحالين يحيي حراً، ويميت بردا، لا يزال مهديه سعيداً، ينجز للأولياء ، وعداً، وللأعداء وعيدا، إن شاء الله تعالى والسلام.

قلت: وقد ذكرت في ترجمة أبي الفتح محمد سبط ابن التعاويذي رسالة كتبها إلى عماد الدين الكاتب الأصبهاني المقدم ذكره يطلب فروة قرظ أيضاً، وكل واحدة من الرسالتين بديعة في بابها، وفي هذه الرسالة كلام يحتاج إلى ايضاح، وهو قوله: لا كطيلسان ابن حرب، وهو أن أحمد بن حرب ابن أخي يزيد المهلبي أعطى أبا علي اسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه البصري الحمدوي الشاعر الأديب طيلسانا خليقاً، فعمل فيه الحمدوي مقاطيع عديدة طريفه، سارت عنه وتناقلتها الرواة، فمن ذلك

قوله من أبيات:

يابن حرب كسوتني طيلسانا
مل من صحبة الزمان فصدّا
طال تردده إلى الرفو حتى
لو بعثناه وحده لتهدا

وقوله أيضاً من أبيات

لقد حالف الرفاء حتى كأنه
يحاول منه أن يعلمه الرفوا

وقوله أيضاً:

يابن حرب كسوتني طيلسانا
أنحلته الأزمان وهو سقيم
فإذا ما رفوته قال سبحا
نك محيي العظام وهي رميم

وقوله أيضاً:

يابن حرب أطلت وتري برفوي
طيلسانا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العر
ض على النار بكرة وعشيا

وله أيضاً:

رأينا طيلسانك يا ابن حرب
يزيد المرء للضعة اتضاعا
إذا الرفاء أصلح منه بعضاً
تداعى بعضه الباقي انصداعا
يسلم صاحبي فيقد شبرا
به وأقد في ردي ذراعا
أجيل الطرف في طرفيه طولا
وعرضا ما أرى إلا رقاعا
فلست أشك أن قد كان دهرا
لنوح في سفينته شراعا
وقد غنيت إن أبصرت منه
بقايا ه على كتفي تداعى
ففي قبل التفرق يا ضباعا
ولا يك موقف منك الوداعا

وله فيه أيضاً:

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
يزرع الرفو فيه وهو سباخ
مات رفاؤه ومات بنوه
وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا

وقال فيه أيضاً، وكتبها إلى بعض الرؤساء:

دعني أبكي كسوتي إذ ودّعت
فلأزمعن على البكاء إذا أزمعت
يا ابن الحسين أما ترى دراعتي
سملا تردت بالبلى وتدرعت

فيهـــا مـــن التمـــزيـــق مـــالـــو أنـــه
مـــرت بهاريـــح الصبـــا لتقشعـــت
يحكـــــي تخرق طيلســـــاني أنها
منـــه تعلمـــت البلى فتضعضعـــت
لافـــرج الـــرحمن عنـــه إنـــه
أعـــدى ثيـــابي كلهـــا فتقطعـــت
فلتحمـــد الله الجبـــال فـــإنها
لـــو قـــارنتـــه لخشعـــت وتصـــدعـــت

وقال فيه أيضاً:

طيلســـان لـــو كـــان لفظـــاً إذن مـــا
شـــك خلـــق في أنـــه بهتـــان
فهـــو كـــالطـــور إذ تجلى لـــه الـــ
ـــله فـــدكـــت قـــواه والأركـــان
كـــم رفـــونـــاه إذ تمزق حتـــى
بقـــي الـــرفـــو وانقضـــى الطيلســـان

وله فيه أيضاً:

يـــابـــن حـــرب إني أرى في زوايـــا
بيتنـــا مثـــل مـــا كســـوت جماعـــة
طيلســـان رفـــوتـــه ورفـــوت الـــر
فـــو منـــه وقـــد رقعـــت رقـــاعـــه
فـــأطـــاع البلى فصـــار خليعـــا
ليـــس يعطـــي الـــرفـــاء في الـــرفـــو طـــاعـــه
فـــإذا ســـائل رآني فيـــه
ظـــن أني فتـــى مـــن أهـــل الصنـــاعـــة

وله في ذلك أيضاً:

قـــل لابـــن حـــرب طيلســـا
نـــك قـــوم نـــوح منـــه أحـــدث
هـــو طيلســـان لم يـــزل
عمـــن مضـــى مـــن قبـــل يـــورث
فـــإذا العيـــون لحظنـــه
فكـــأنـــه بـــاللحـــظ يحرث
يـــودي إذا لم أرفـــه
فـــإذا رفـــوت فليـــس يلبـــث
كـــالكلـــب أن تحمـــل عليـــه
ـــيه الـــدهـــر أو تتركـــه يلهـــث

ويقال إنه عمل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع في كل مقطوع معنى بديع ، وأما قوله ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، فيريد قول النحاة ضرب زيد عمرا فإنهم أبدا يستعملون هذا المثال ولا يمثلون غيره، فكأنهم يمزقون جلده لكثرة الضرب، وكان الأصل الذي حمل الحمدوي المذكور على عمل هذه المقاطيع أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران السلي - بضم الجاء المهمله ـ في طيلسانه، وكان قد أخلق حتى بلي فقال فيه:

يـــا طيلســـان أبي حمران قـــد بـــرمـــت
منـــك الحيـــاة فما تلتـــذ بـــالعمـــر
في كـــل يـــومين رفـــاء تجدده
هيهـــات ينفـــع تجديـــد مـــع الكبر
إذا ارتـــداه لعيـــد أو لجمعتـــه
تنكـــب النـــاس أن يبلى مـــن النظـــر

وهذا البيت الثالث أخذه من قول النظام - بفتح النون وتشديد الظاء المعجمة ـ أ بي اسحق ابراهيم بن سيار البلخي المتكلم المعتز لي ، في وصف غلام رقيق البشرة:

رق فلـــــو بـــــزت سرابيلـــــه
عقلـــــه الجوّ مـــــن اللطـــــف
تجـــرحـــه النـــاس بـــألحاظهـــم
ويشتكـــــي الايماء بـــــالكـــــف

وأنشـدني بعض الأدبـاء بمدينـة الموصـل في شهر رمضـان سنة ست وعشرين وستمائة في هذا المعنى لبعض الشعراء:

تـــوهمهـــا طـــرفي فـــأصبـــح خـــدهـــا
وفيـــه مكـــان الـــوهـــم مـــن نظـــري أثـــر
وصـــافحهـــا قلبـــي فـــأدمـــى بنـــائهـــا
فمـــن لمس قلبـــي في انـــاملهـــا عقـــر

وأنشدني الشيخ أيدمر الصوفي السلمي ابراهيم لنفسه دو بيت في هذا المعنى:

كلفـــت صبـــا العـــراق لما خطـــرت
أن تحمـــل لي تحيـــة مـــا قـــدرت
قـــالـــت لي خيفتـــي على وجنتـــه
إن جـــرت بها جـــرحتهـــا فـــاعتـــذرت

ولبعض الادبـاء الفقراء مـن جملة أبيات شكـا فيها رقة حـاله، ورثـاثة ثيابه مايقرب من هذا المعنى، وهو قوله:

ولي ثيـــاب رثـــاث لســـت أغسلهـــا
أخـــاف أعصرهـــا تجري مـــع الماء

وقد قيل في هذا المعنى شيء كثير، والاختصار أولى والله أعلم

عدنا إلى ما كنـا فيه، وكان القاضي أبو المحاسن المذكـور سلك طريق البغاددة في ترتيبهم وأوضاعهم، حتى أنـه كان يلبس ملبوسهم، والرؤساء يترددون إليـه، وكانـوا ينزلـون عن دوابهم على قـدر أقدارهـم لكل واحـد

منهم مكان معين لا يتعداه، ثم أنه تجهز إلى الديار المصرية لاحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب، وكان قد عقد نكاحه عليها، فسار في أول سنة تسع وعشرين أواخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، وعاد وقد جاء بها في شهر رمضان من السنة، ولماوصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه، ورفعوا عنه الحجر، ونزل الأتابك طغرل من القلعة إلى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه، واشتغل بهم، ولم ير القاضي أبو المحاسن وجها يرتضيه، فلازم داره إلى حين وفاته، وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية ما في الباب أنه لم يبق له حديث في الدولة، ولا كانوا يراجعونه في الأمر، فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين، وظهر عليه الخوف بحيث أنه صار إذا جاءه الانسان لا يعرفه، وإذا قام سأل عنه ولا يعرفه، واستمر على هذا الحال مديدة، ثم مرض أياما قلائل، وتوفي يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى بحلب،ودفن في التربة المقدم ذكرها، وحضرت الصلاة عليه، ودفنه وما جرى بعد ذلك.

وصنف كتاب ملجأ الحكام عند التباس الأحكام يتعلق بالأقضية في مجلدين، وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيه على الأحاديث المستنبط منها الأحكام في مجلدين، وكتاب الموجز الباهر في الفقه وغير ذلك، وكتاب سيرة صلاح الدين بن أيوب رحمه الله تعالى وجعل داره خانقاه للصوفية لأنه لم يكن له وارث، ولازم الفقهاء والقراء تربته مدة طويلة يقرأون عند قبره، وكان قد قرر قدام كل واحد من الشباكين المذكورين اللذين للتربة سبعة قراء، وكان غرضه أن يقرأ عنده كل ليلة ختمة كاملة، فكان كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصف سبع بعد صلاة العشاء الآخرة، وفارقت حلب متوجها إلى الديار المصرية في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وستمائة والأمور جارية على هذه

الأوضاع، ثم بعد ذلك تغيرت تلك الأمور وانتقضت قواعدها، وزال جميع ذلك على ما بلغني.

وتوفي الشيخ نجم الدين بن الخباز المذكور في السابع من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وستمائة بحلب، ودفن بظاهرها خارج باب الأربعين، وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى، وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بالموصل، وتوفي الأتابك شهاب الدين طغرل المذكور ليلة الاثنين الحادي عشر من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بحلب، ودفن بمدرسة الحنفية خارج باب الأربعين، وكان خادماً أرمني الجنس أبيض حسن السيرة محمود الطريقة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى، وتوفى أبو الحسن بن خروف الأديب المذكور بحلب في سنة أربع وستمائة مترديا في جب، رحمه الله تعالى.

أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والعراقية واليمنية

قد تقدم في هذا الكتاب ذكر أبيه أيوب، وجماعة من أولاده، وعمه أسد الدين شيركوه، وأخيه الملك العادل أبي بكر محمد وجماعة من أولاده وغيرهم من أهل بيته، وصلاح الدين كان واسطة العقد، وشهرته أكثر من أن يحتاج إلى التنبيه عليه.إتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دُوين —بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون —وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وأنهم أكراد روادية ، بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مشددة وبعدها هاء ـ والروادية بطن من الهذانية، بفتح الهاء والذال المعجمة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ـ وهي قبيلة كبيرة من الأكراد، وقال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين أن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان ـ بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف، وبعد الألف الثانية نون أخرى ـ وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد أيوب والد صلاح الدين بها وشادي أخذ ولديه منها: أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها وعلى قبره قبة داخل البلد، ولقد تتبعت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شادي أبا آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب، فلم أرفيها سوى شيركوه بن شادي وأيوب بن شادي لاغيره.

وقال لي بعض كبراء بيتهم: هو شادي بن مروان، وقد ذكرت ذلك في ترجمة أيوب وشيركوه، ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن غريب بن عمران الجرشي يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن

عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن نهش بن حارثة - صاحب الحمالة - بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث ابن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب حتى انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح المتنبي، ويعرف بالخراساني وفيه يقول من جملة قصيدته

شرف الجوّ بالغبار إذا سا
رعلي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم ابن سنان، وفيهما قال زهير بن أبي سلمى المزني قصائد منها قوله:

على مكثريهم حق من يعتريهم
وعند المقلين السماحة والبذل
وهل ينبت الخطي إلاّ وشيجة
وتغرس إلاّ في منابتها النخل

هذا آخر ماذكره في المدرج، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة، والله أعلم. انتهى ما نقلته من المدرج.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك

اليمن إدعى نسباً في بني أمية وإدعى الخلافة، وسمعت شيخنا القاضي بهاء الدين ـ عرف بابن شداد ـ يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال: ليس لهذا أصل أصلاً

قلت: ذكر شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بابن الاثير الجزري صاحب التاريخ الكبير في تاريخه الصغير الذي صنفه للدولة الأتابكية ملوك الموصل في فصل يتعلق بأسد الدين شيركوه ومسيره إلى الديار المصرية فقال: كان أسد الدين شيركوه، ونجم الدين أيوب وهو الأكبر ابنا شادي من بلددوين، وأصلهما من الاكراد الروادية، قدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي شحنة العراق.

قلت: وهذا مجاهد الدين كان خادما روميا أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدّم ذكره، وذكر والده وجماعة من أهل بيته، وكان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة، وعمارة البلاد واسع الصدر والصبر في البذل والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض، وكانت تكريت إقطاعاً له، وكان خادم السلطان محمد والد مسعود المذكور وبنى في بغداد رباطا وقف عليه وقفاً جيداً، ومات يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة أربعين وخمسمائة ـ وبهروز بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي ـــوهو لفظ عجمي معناه يوم جيد علي التقديم والتأخير على عادة كلام العجم ـــ قال شيخنا ابن الاثير: فرأى مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلاً ورأيا حسنا وحسن سيرة فجعله دز دار تكريت إذ هي له ـ قلت: دز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة، وبعد الألف راء ، وهو لفظ عجمي، معناه حافظ القلعة وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ ـ فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه فلما انهزم

أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بالعراق من قراجا ـ قلت: وهي قصة مشهورة ـ وخلاصتها أن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم ذكره، وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الامام المسترشد فأرسل إلى قراجا الساقي واسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به، فأتاه وكبس عسكرهما، وانهزموا ما بين يديه وانكسروا، وذكر في تاريخ الدولة السلجوقية أنها كانت في شهر ربيع الآخر يوم الخميس ثاني عشر الشهر المذكور من سنة ست وعشرين وخمسمائة على تكريت.

وقال أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه: أنه حضر هذه الوقعة مع زنكي في التاريخ المذكور، وذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل والثاني في ترجمة تكريت.

رجعنا إلى ما كنا فيه: فوصل زنكي إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين إليهم وسيرهم، وبلغ ذلك بهروز فسير إليه وأنكر عليه وقال له: كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته، ثم إن أسد الدين شيركوه قتل إنسانا بتكريت لكلام جرى بينهما فأرسل مجاهد الدين إليهما فأخرجهما من تكريت فقصدا عماد الدين زنكي.

قلت: وكان إذ ذاك صاحب الموصل، قال: فأحسن عماد الدين إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطع لهما إقطاعا حسناً، وصارا من جملة جنده، فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، فلما قتل زنكي— قلت: وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته ــ قال: فحصره عسكر دمشق ـ قلت: وكان صاحب دمشق يومئذ مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ابن الاتابك ظهير الدين طغتكين وهو الذي حاصره نور الدين

محمود بن زنكي في دمشق وأخذها منه ـ قال شيخنا ابن الاثير: فأرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وقد قام بالملك بعد والده ينهي إليه الحال، ويطلب منه عسكراً ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه، وهو مشغول بالصلاح ملوك الأطراف المجاورين له فلم يتفرغ له، وضاق الأمر على من في بعلبك من الحصار، فلما رأى نجم الدين أيوب الحال، وخاف أن تؤخذ قهراً أرسل في تسليم القلعة، وطلب اقطاعاً ذكره فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم له القلعة، ووفى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الأقطاع والتقدم، وصار عنده من أكبر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل أبيه زنكي.

قلت: هو نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه نور الدين، وأقطعه، وكان يرى منه في الحروب آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجراءته، فصارت له حمص، والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره .

قلت: ثم خرج شيخنا ابن الاثير بعد هذا إلى حديث سفر أسد الدين إلى الديار المصرية، وما تجدد لهم هناك وليس هذا موضع هذا الفصل، بل نتم حديث صلاح الدين صاحب هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخره إن شاء الله تعالى، ويندرج فيه حديث المملكة وما صار حالهم إليه، وإن كان قد سبق في ترجمة أسد الدين شيركوه طرف من أخبارهم، لكن ما استوفيته هناك اعتمادا على استيفائه ههنا إن شاء الله تعالى.

قلت: اتفق أرباب التواريخ أن صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها، والظاهر أنهم ما

أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين إلا مدة يسيرة لأنه قد سبق القول أن نجم الدين وأسد الدين لما خرجا من تكريت كما شرحناه وصلا إلى عماد الدين زنكي فأكرمهما وأقبل عليهما، ثم إن عماد الدين زنكي قصد حصار دمشق فلم تحصل له فرجع إلى بعلبك فحاصرها أشهراً وملكها في رابع عشر صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، كما ذكر أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها.

وذكر أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي الدمشقي في تاريخه الذي جعله ذيلا على تاريخ أبي الحسين هلال ابن الصابىء أن عماد الدين حاصر بعلبك يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين، ثم ذكر في مستهل سنة أربع وثلاثين ومائة ورود الخبر بفراغ عماد الدين من ترتيب بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها والله أعلم، وإذا كان كذلك فيكونون قد خرجوا من تكريت في بقية سنة اثنتين وثلاثين التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة سنة ثلاث وثلاثين لأنهما أقاما عند عماد الدين بالموصل، ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين كما شرحته فيتعين أن يكون خروجهم من تكريت في المدة المذكورة تقريبا والله أعلم.

قلت: ثم أخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته: هل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال: سمعت جماعة من أهلنا يقولون إنهم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وما تعلمون، فكان كما قال والله أعلم، ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته، وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة ونور الدين يرى له ويؤثره،

ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير، وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية، كما سنشرحه إن شاء الله تعالى.

ووجدت في بعض تواريخ المصريين أن شاور المقدم ذكره هرب من الديار المصرية من الملك المنصور أبي الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري، لما استولى على الديار المصرية، وقهره وأخذ مكانه في الوزارة لعادتهم في ذلك وقتل ولده الأكبر طي بن شاور، فتوجه شاور إلى الشام مستغيثا بالملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود بن زنكي، وذلك في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ودخل دمشق في الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة فوجه معه نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي في جماعة من عسكره، كان صلاح الدين في جملتهم في خدمة عمه، وهو كاره للسفر معهم، وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش غرضان أحدهما قضاء حق شاور لكونه قصده ودخل عليه مستصرخا، والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة في جهة الجند، وأحوالها في غاية الاختلال، فقصد الكشف عن حقيقة ذلك، وكان كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته، فانتدبه لذلك وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره، وشاور معهم فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين، فدخلوا مصر، واستولوا على الأمر في رجب من السنة.

وقال شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد المقدم ذكره في كتابه الذي وسمه بسيرة صلاح الدين : إنهم دخلوا مصر في ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، والقول الأول أصح لأن الحافظ أبا طاهر السلفي ذكر في معجم السفر أن الضرغام بن سوار قتل في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وزاد غيره فقال يوم الجمعة

الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فيما بين القاهرة ومصر واحتز رأسه وطيف به على رمح وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل، وعمرت عليه قبة.

قلت: والقبة باقية إلى الآن في موضعها تحت الكبش المستحدث بناؤه ورأيت فيها جماعة من الفقراء الجوالقية مقيمين بها، وقد قيل إن الضرغام قتل في رجب سنة تسع وخمسين، وقد اتفقوا أن الضرغام إنما قتل عند وصول أسد الدين شيركوه وشاور إلى مصر فما يمكن أن يكون دخولهم في سنة ثمان وخمسين لأن الضرغام لاخلاف في قتله سنة تسع وخمسين، وأنه كان في أول وصولهم، والحافظ السلفي أخبر بذلك لأنه كان مقيما بالبلاد أول وصولهم، وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه، وهو من أقعد الناس به، ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام، وحصل الشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده، واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه، وحصروه في بلبيس، وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وأنها مملكة بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام، والمحال، فطمع فيها، وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين.

وقال شيخنا ابن شداد: في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين بناء على ما قرره أولا أن دخولهم البلاد كان في سنة ثمان وخمسين وأقام أسد الدين بالشام مدة مفكراً في تدبير عوده إلى مصر محدثا نفسه بالملك لها، مقرراً قواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها، وعلم أن أسد الدين لا بدله من قصدها، فكاتب الفرنج، وقرر معهم أنهم يجيؤون إلى البلاد، ويمكنهم منها تمكينا كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه، وبلغ

نور الدين وأسد الـدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقـرر بينهم، فخافا على الديار المصرية أن يملكـوها، ويملكوا بطريقها جميع البـلاد، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الـدين معه العساكر، وصلاح الدين في خـدمة عمه أسد الدين شيركـوه، وكان توجههم من الشام في شهـر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وكـان وصول أسـد الـدين إلى البـلاد مقـارنـا لوصـول الفرنج إليهـا ، واتفق شاور والمصريون بـأسرهم والفرنج على أسـد الدين وجـرت حروب كثيرة، ووقعـات شـديدة، وانفصـل الفـرنـج عن البـلاد، وانفصل أسـد الدين راجعـاً إلى الشام، وكان سبـب عود الفرنـج أن نور الديـن جرد العساكـر إلى بلادهم وأخذ المنيطـرة منهم في رجب مـن هذه السنة، وعلم الفرنج ذلك فخافـوا على بلادهم، فعادوا إليها، وكان سبب عـود أسـد الـديـن إلى الشـام ضعف عسكـره بسبـب مـواقعـة الفـرنـج والمصريين وما عـاينوه من الشـدائد، وعانوه مـن الأهوال، وما عـاد حتى صالـح الفرنـج على أن ينصرفوا كلهم عـن مصر، وعاد إلى الشـام في بقية السنة وقـد انضاف إلى قوة الطمع في الـديار المصرية شـدة الخوف عليها من الفرنج لعلمـه بأنهم قد كشفوها، كما قد كشفها، وعرفـوها كما عرفها، فأقام بـالشام على مضض وقلبه قلق، والقضـاء يقوده إلى شيء قدر لغيره وهو لا يشعـر بذلـك، وكان عوده في ذي القعـدة من السنـة المذكورة إلى الشام وقيل إنه عاد في ثامن عشر شوّال من السنة والله أعلم.

ورأيت في بعض المسـودّات التي بخطي، ولا أعلم مـن أين نقلته، أن أسد الـدين لما طمع في الديـار المصرية توجه إليهـا في سنة اثنتين وستين وسلـك طريـق وادي الغـزلان، وخرج عنـد أطفيح، فكـانـت فيها وقعـة البابين عنـد الأشمونين، وتوجـه صلاح الديـن إلى الاسكندرية، فـاحتمي بها وحاصره شـاور في جمادى الآخرة من السنـة، ثم عـاد أسد الديـن من جهـة الصعيـد إلى بلبيـس، وتم الصلـح بينـه وبين المصريين، وسيروا لـه صلاح الدين فساروا إلى الشام، ثم إن أسد الدين عاد إلى مصر مرة ثالثة.

قال: شيخنا ابن شداد وكان سبب ذلك أن الفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين طمعا في البلاد ، فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد، وأما نور الدين فبالمال والرجال، ولم يمكنه المسير بنفسه خوفا على البلاد من الفرنج، ولأنه كان قد حدث له نظر إلى جانب الموصل بسبب وفاة علي بن بكتكين.

قلت: هو زين الدين والد السلطان مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وقد تقدم ذكره في ترجمة ولده كوكبوري، قال:فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وسلم ما كان في يده من الحصون لقطب الدين أتابك ما عدا إربل فإنها كانت له من أتابك زنكي.

وأما أسد الدين فسار بنفسه وماله وأخوته وأهله ورجاله، ولقد قال لي السلطان صلاح الدين قدس الله روحه:كنت أكره الناس للخروج في هذه الوقعة وما خرجت مع عمي باختياري، وهذا معنى قوله تعالى: (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ، وكان شاور لما أحس بخروج الفرنج إلى مصر على تلك القاعدة سير إلى أسد الدين شيركوه يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا، وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما علم الفرنج بوصول أسد الدين إلى مصر على اتفاق بينه وبين أهلها، رحلوا راجعين على أعقابهم ناكسين، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مخالب أسد الدين في البلاد، وعلم أنه متى وجد الفرنج فرصة أخذوا البلاد، وأن شاور يلعب به تارة، وبالفرنج أخرى، وملاكها وقد كانوا على البدعة المشهورة، وتحقق اسد الدين أنه لاسبيل لاستيلائه على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه، وكان الأمراء الواصلين مع أسد

الـدين يترددون إلى خـدمة شـاور، وهو يخرج في بعـض الأحيان إلى أسـد الدين يجتمع بـه، وكان يركب على عادة وزرائهم بـالطبل والبوق والعلم، ولم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعـة إلا السلطان بنفسه، وذلك أنه لما سار إليـه تلقاه راكبـا وسار إلى جنبـه،وأخذ بتـلابيبه، وأمـر العسكر بـأن يقصدوا أصحابه ففروا ونهبهم العسكـر فأنزل شاور إلى خيمة مفردة، وفي الحال ورد توقيع على يد خادم خاص مـن جهة المصريين يقول: لابد من رأسه جريـا على عادتهم في وزرائهم فحز رأسـه، وأرسل إليهم وسيروا إلى أسـد الديـن خلـع الوزارة فلبسهـا، وسـار ودخـل القصر ورتب وزيـرا، وذلـك في سابـع عشر ربيع الأول سنـة أربع وستين وخمسمائة، ودام آمـراً وناهيـاً، والسلطان صـلاح الديـن رحمه الله تعالى يبـاشر الأمور مقـرراً لها لمكـان كفايتـه ودرايته وحسـن رأيه وسيـاسته، إلى الثـاني والعشرين مـن جمادى الآخرة من السنة المذكورة فمات أسد الدين.

قلـت: وقد تقـدم حديـث أسد الـديـن وصورة مـوته فـلا حاجـة إلى شرحها ههنـا، وكذلك وفـاة شاور، وهذا كله نقلتـه من كلام شيخنـا ابن شداد في سيرة صـلاح الديـن، لكنني أتيت بـالمقصود، وحـذفت البـاقي ورأيت بخطي في جملة مسوداتي أن أسد الديـن دخل القاهرة يوم الأربعاء سـابع شهـر ربيـع الآخرة مـن سنـة أربـع وستين وخمسمائة، وخرج إليـه العاضـد عبد الله العبيـدي آخر ملـوك مصر المقدم ذكـره، وتلقاه وحضر يوم الجمعـة التاسـع من الشهـر إلى الإيوان وجلـس إلى جانـب العاضـد وخلع عليه، وأظهر لـه شاور ودا كثيرا فطلب أسد الدين منـه مالاً ينفقه في عسكره فدافعه، فأرسل إليـه إن الجند تغيرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقـة فإذا خـرجت فكـن على حذر منهـم، فلم يكترث شـاور بكلامـه وعزم على أن يعمـل دعوة يستدعـي إليها أسد الديـن والعساكر الشـامية ويقبض عليهـم فأحـس أسد الديـن بذلـك، فاتفق صـلاح الديـن وعز الـدين جـورديك النـوري وغيرهما على قتل شـاور، وأعلموا أسـد الديـن فنهاهم عنه، وخـرج شاور إلى أسد الدين، وكانت خيـامهم على شاطىء

النيل بالمقس، فلم يجده في خيمته، وكان قد راح إلى زيارة قبر الامام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة، فقال شاور: نمضي إليه فالتقوه فساروا جميعاً فاكتنفه صلاح الدين وجورديك فأنزلاه عن فرسه وكتفوه، فهرب أصحابه فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله بغير إذن، وجعلوه في خيمة ورسموا عليه جماعة، فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه، وسيروا رأسه على رمح إلى العاضد، وذلك يوم السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وقيل إن أسد الدين لم يحضر ذلك بل لما قصد شاور جهة أسد الدين لقيه صلاح الدين وجورديك ومعهما بعض العسكر، فسلم بعضهم على بعض، وساروا ثم فعلا به هذه الفعلة، والله أعلم.

ثم إن العاضد استدعى أسد الدين عقيب قتل شاور، وكان في المخيم، فدخل القاهرة فرأى جمعا كثيراً من العامة فخافهم فقال لهم إن مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور فتفرقوا ومضوا لنهبها، ودخل على العاضد فتلقاه وأفاض عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، ثم إنه مات يوم الأحد لسبع بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعلة الخوانيق، وقيل إنه سم في حلل الوزارة لما خلع عليه، وكانت وفاته بالقاهرة ودفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة السلام، فكانت مدة وزارته شهرين وخمسة أيام، وقيل إن أسد الدين دخل على العاضد يوم الاثنين التاسع عشر من شهر ربيع الآخرة من السنة المذكورة والله أعلم.

قلت: قد تقدم في ترجمة كل واحد من شاور وأسد الدين ذكر شيء من هذه الأمور التي ذكرتها ههنا، وإنما أعدت الكلام فيها لأني استوفيتها ههنا أكثر من هناك، وأيضاً فإن المقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته وما جرى له من أول أمره إلى آخره، فأحببت ذكر ذلك على سياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتر فأقول: ذكر

المؤرخون أن أسد الدين لما مات استقرت الأمور بعده للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضاع وبذل الأموال وملك قلوب الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بقميص الجد والاجتهاد، وما زال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات.

قال شيخنا ابن شداد: سمعته يقول رحمه الله تعالى: لما يسر الله تعالى لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه وقع ذلك في نفسي، ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وغيرهما من البلاد، وغشي الناس من سحائب الافضال والانعام مالم يؤرخ عن غير تلك الايام، وهذا كله وهو وزير متابع القوم، لكنه يقول بمذهب أهل السنة، مارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لايخيب قاصدا، ولا يعدم وافداً إلى سنة خمس وستين وخمسمائة، ولما عرف نور الدين استقرار السلطان صلاح الدين بمصر، أخذ حمص من نوّاب أسد الدين شيركوه، وذلك في رجب سنة أربع وستين.

ولما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم للسلطان من استقامة الأمر بالديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، واجتمع الفرنج والروم جميعاً، وقصدوا الديار المصرية، فقصدوا دمياط، ومعهم آلات الحصار وما يحتاجون إليه من العدد، ولما سمع فرنج الشام ذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبه، وكان مملوكاً لنور الدين يقال له خطلخ العلم دار، وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين، ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط

قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية، وكانت وفاته بحلب في شهر رمضان سنة خمس وستين، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي اخربت كثيرا من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوّال منها، فسار يطلب حلب، فبلغه خبر موت أخيه قطب الدين بالموصل.

قلت: وقد ذكرت ذلك في ترجمته واسمه مودود.

قال: وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل، ولما بلغ صلاح الدين قصد الفرنج دمياط استعد له بتجهيز الرجال وجمع الآلات إليها ووعدهم بالامداد بالرجال إن نزلوا عليهم وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً، لايرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها، وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله تعالى المسلمين به وبحسن تدبيره فرحلوا عنها خائبين فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل من رجالهم خلق كثير،واستقرت قواعد صلاح الدين، وسير يطلب والده نجم الدين أيوب ليتم له السرور، وتكون قصتة مشاكله لقصة يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده إليه في جمادى الآخرة من سنة خمس وستين.

قلت: هكذا ذكر ابن شداد في تاريخ وصوله إلى مصر، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته، وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه، وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كفؤ له، ولا ينبغي أن تغير موضع السعادة فحكمه في الخزائن كلها، ولم يزل وزيراً حتى مات العاضد في التاريخ المقدم ذكره.

قلت: أكثر ماذكرته في هذا الفصل منقول من كلام شيخنا ابن شداد في سيرة صلاح الدين، وفيه زوائد من غير ها، والذي ذكره شيخنا الحافظ عز الدين بن الأثير المذكور قبل هذا في تاريخه الأتابكي أن كيفية ولاية صلاح الدين: أن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، يعني بعد موت أسد الدين، منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن بليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل.

قلت: وهو صاحب المدرسة القطبية التي بالقاهرة، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، جده كان صاحب القلاع الهكارية.

قلت: هو المعروف بالمشطوب والد عماد الدين أحمد بن المشطوب، وتقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين ، وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه، وقد جمعها ليغالب عليها، فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين والقصة مشهورة،أردت عمرا وأراد الله خارجة(٦).

قلت: هذا المثل مشهور بين العلماء وسيأتي الكلام عليه بعد الفراغ من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى.

عدنا إلى تمام الكلام الأول فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن

هذا المقام فلزمه وأخذه كارهاً، إن الله تعالى يعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه .

قلت: وقد سبق ذكره في ترجمة مفردة، وقال ابن الاثير: فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه ولم يصل إليك، فلم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه، ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ووعده وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين، وعدل أيضا إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم ينفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبدا، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقة، وقد فات الأمر (ليقضي الله أمراً كان مفعولا) وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير إلا سفهسلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيما أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال

الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد فكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

قال ابن الأثير في تاريخه الكبير: قد اعتبرت التواريخ، ورأيت كثيراً من التواريخ الاسلامية، فرأيت كثيراً ممن يبتديء الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه منهم في أول الاسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك عن اعقابه إلى بني مروان من بني عمه، ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد فيهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه، ثم يعقوب الصفار، وهو أول من ملك من أهل بيته وانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو، وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته، ثم انتقل الملك عنة إلى أخويه معز الدولة وركن الدولة، ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرلبك، ثمم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ، ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب، ولو لا خوف الاطالة لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولته يكثر القتل فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به، لهذا يحرم الله أعقابه ويفعل ذلك لاجلهم عقوبة له.

نعود إلى ذكر صلاح الدين: وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر، وفيهم أخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب.

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له نور الدين:إن كنت تسير إلى مصر وتنظر

إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك، وأنت قاعد ، فلا تسر فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر، وقائم مقامي، وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه، واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك إن شاء الله تعالى، فكان معه كما قال.

ثم قال شيخنا ابن الأثير بعد هذا بأوراق، في فصل يتعلق بانقراض الدولة المصرية وإقامة الدولة العباسية، فقال: في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة قطعت خطبة العاضد صاحب مصر، وخطب فيها للإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه في مصر، وأزال المخالفين له وضعف أمر العاضد، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى دولة المصرين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لافسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة، فاستشار أمراءه كيف الابتداء بالخطبة العباسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر رجل عجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيراً، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا أبتدىء بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله تعالى فلم ينكر أحد ذلك، فلما كان الجمعة الثالثة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله

وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره وجميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه،

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمته أيضاً ، قال: وجعله كأستاذ دار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في إيوان بالقصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان فيه من العبيد والإماء فأعتق البعض، ووهب البعض ، وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور، ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين فظن أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

وكان ابتداء الدولة العبيدية بإفريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين، وأول من ظهر منهم المهدي أبو محمد عبيد الله، وبنى المهدية وملك إفريقية كلها —قلت: هكذا ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخ استيلاء المهدي عبيد الله على إفريقية، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته فيكشف منه— ثم إنه قال: ولما مات المهدي عبيد الله قام بالأمر بعده ولده القائم أبو القاسم محمد، ثم ذكرهم واحداً واحداً حتى انتهى إلى العاضد المذكور فقال: وانقرضت دولتهم، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثماني سنين، وملك منهم أربعة عشر، وهم المهدي، والقائم، والمنصور والمعز، والعزيز والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد آخرهم.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من هؤلاء في ترجمة مستقلة في هذا الكتاب فمن اختار الوقوف على أحوالهم فليطلبه في اسمه ولاحاجة إلى ذكره ههنا، قال: شيخنا ابن الأثير: وقد أتينا على ذكر ما أجملنا مستقصى في التاريخ الكبير، يعني كتابه الذي سماه الكامل، وهو مشهور، ومن أنفع الكتب في بابه، قال: ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله ما أراد، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين، وممر الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قصبة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة، والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد، ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل نور الدين إليه يعرفه ذلك فحل عنده أعظم محل وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراما له ، لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك أيضاً سير خلعا لصلاح الدين إلاّ أنها أقل من خلع نور الدين، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر وكانت هذه أول أهبة عباسية قد دخلت مصر بعد استيلاء العبيديين عليها، انتهى ما قاله شيخنا ابن الأثير.

قلت: ولما وصل الخبر إلى الامام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن الامام المستنجد، وهو والد الامام الناصر لدين الله بما تجدد من أمر مصر، وعود الخطبة والسكة بهاباسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة، نظم أبو الفتح محمد سبط ابن التعاويذي المقدم ذكره قصيدة طنانة، مدح بها الامام المستضيء، وذكر هذه الفتوح المتجددة، وفتوح بلاد اليمن أيضا، وهلاك الخارجي بها الذي سمى نفسه المهدي، وذلك في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئاً كثيراً وأولها:

قـــل للسحــــاب إذا مرتــــــ
ـــه يــــدا الجنـــائب فـــارحجـــن
عج باللوى فاسمح بدمـــــــــ
ـــعك للمعـــاهـــدوالـــدمـــن
يـــا منـــزل الانـــس الجميــــ
ـــع وملعـــب الحي الاغـــن
سكنـــــت بـــك الآرام مـــن
بعـــد الاحبـــــة والسكـــن
أيـــن استقلـــت بالحبيـــ
ـــب ركـــابـــه ومتـــى ظعـــن
شـــوقـــي إلى زمـــن الحمـــى
سقـــى الغـــوادي مـــن زمـــن
شـــوقـــي المغـــرّب شرد تــــه
العبـــادعـــن الـــوطـــن
ولقـــد عهـــدتـــك والـــزمـــا
ن يشملنـــا بـــك مـــاقطـــن

وتـــراك مـــا اغبرت مســـا
رحـــه ومـــاؤك مـــا أجـــن
وظبـــاؤك الاتـــراب لي
وطـــر وتـــر بـــك لي وطـــن
لام العـــذول ومـــادرى
وجـــدي وبلبـــالي بمـــن
وجـــدي بمـــن فضـــح القضيـــ
ـــب وأخجـــل الـــرشـــا الأغـــن
مـــاضر مـــن هـــو فتننـــي
لـــو كـــان يـــرحـــم مـــافتـــن
دمعـــي طليـــق في محبــــ
ـــته وقلبـــي مـــرتهن

يـــــا محتشــــــي أودى الصـــــدو
دلعــــاشــــق بـــــك ممتحـــــن
غــــادرتـــــه وقفــــا على الــــــ
ـــــعبرات بعــــــــدك والحزن
كـــــان الفـــــؤاد معـــــذبــــا
بين الاقـــامـــــة والظعــــن
عطفـــــا على قـــــرح الجفـــــو
ن بعيـــد عهـــد بـــالـــوســـن
لاتبخلي فـــــالبخــــل يـــــذ
هـــب بهجـــة الـــوجـــه الحســـن
ولــــرب ليـــل ببـــــث فيـــــ
ــــه صريــــع بـــاطيــــة ودن
لكننــــــي كفـــــرت لـــــــ
ـــيلة زرتــــه عنـــي وعـــن
بمــــــــدائحـــــــي للمستضيء
أبي محمــــــــدالحســـــــن
المستقــــــــرمـــــن الخلا
فـــــة في الشـــــواهـــق والقنـــن
يــــاجــــاريــــافي العـــدل مـــن
سنـــــن النبـــــي على سنـــــن
يـــاجـــامعــــا خلـــق النبـــوّ
ة والخلافـــــــة في قـــــــرن
دانـــــــت لهيبتـــــــك المما
لــــك والمعــــــاقــــل والمدن
بــــا لمشرفيـــــــات الصـــوا
رم والمثقفـــــــة اللــــــــدن
وأتتــــك أســـــلاب الملـــــو
ك مـــــن الصعيــــد إلى عـــــدن
سلـــب الـــدعـــي بـــأرض مصــــ
ـــــر والمضلــــل في اليمـــــن

مما اقتناه ذو رعـ
ـين في القديم وذو يزن
وشفيت منهم بالظبا
تلك الضغائن والأحن
لم تغن عنهم حين رعـ
ـتهم الحصون ولا الجنن
أمست سبايا هم تقا
د أذلة قود البدن
غادرت عرض بلادهم
عرض النوائب والمحن
في كل يوم من جيو
شك غارة فيها تشن
وأعدت سر الأوليا
ء المؤمنين بها علن
ورحضت ما أبقته آ
ثار الخوارج من درن
فكأن دعوتهم على
تلك المنابر لم تكن (٧)

وهي طويلة فنقتصر منها على هذا القدر ففيه كفاية، ومدحه أيضاً بقصيدة أخرى أشار فيها إلى هذا المعنى وليس على خاطري من هذه القصيدة سوى غزلها فأحببت ذكره لكونه في غاية الحسن واللطافة وهو قوله:

أهلا بطلعة غادة
فضح الدجى بضيائها
سمح الزمان بوصلها
فدنت على عدوائها
باتت تعاطيني المدا
م وكنت من أكفائها

فسكـــــرت مـــــن ألحاظهـــــا
وغنيـــت مـــن صهبـــائهـــا
بيضـــــــــــــاء قتلي دأبها
في نـــــأيها وثـــــوائهـــــا
فـــــإذا رنـــــت بجفـــــونها
وإذا نـــــأت بجفـــــائهـــــا
لاتلتقـــــي أبـــــدا مـــــوا
عـــدهـــا بيـــوم وفـــائهـــا
الشمـــــــس مـــــن ضراتها
والبـــدر مـــن رقبـــائهـــا
والصبـــح فـــوق لثـــامهـــا
والليـــــل تحت ردائهـــــا
مضريـــــة تتمســـــى إذاانـــــ
ـــــتسبت إلى حمرائهـــــا
بـــاتـــت وأطـــراف الـــرمـــا
ح تجول حـــول خبـــائهـــا
فـــــالموت دون فـــــراقهـــــا
والموت دون لقـــــائهـــــا
ولقـــد مـــررت بـــربعهـــا
بعـــد النـــوى وفنـــائهـــا
والعين في الأطـــــلال ســـــا
كبـــــة على أطـــــلالها
فـــوقفـــت أنشـــد في مطـــا
لعهـــا بـــدور سمائهـــا
وبكيـــت حتـــى كـــدت أعـــ
ـــطف بـــانتـــي جـــرعـــائها
يـــا مـــوحـــش العين التـــي
أنســـت بطـــول بكـــائهـــا

غـــــادرت بين جـــــوانحـــــي
نفســـــا تموت بـــــدائهـــــا
تشتـــــاق عينـــــي أن تـــــرا
ك وأنـــــت مـــــن ســـــودائهـــــا
وإذا بخلـــــت بنظـــــرة
سمحـــــت بجمـــــة مـــــائهـــــا
فسكـــــانها كـــــف الخليـــــ
ـــــفة أسبلـــــت بعطـــــائهـــــا(٨)

وبعد هـذا شرع في المديح وأبدع فيها جميعهـا، وسأذكر بعد هـذا عند أواخر هذه الترجمة شيئـاً من مدائحه في صلاح الديـن إن شاء الله تعالى، فقد كـان يسير قصائده إليه من بغـداد فتصل أولا إلى القاضي الفـاضل، ومعها مـديح للفـاضل، وهـو الذي يعـرض قصائده على صـلاح الديـن رحمه الله تعالى.

ثم ذكر شيخنا ابن الأثير بعد هـذا فصلا يتضمن حصول الوحشة بين نور الدين وصـلاح الدين باطناً فقال: وفي سنـة سبع وستين أيضاً حدث ما أوجب نفرة نور الدين عن صـلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الـدين يأمره بجمع العساكـر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنـج والنزول على الكـرك ومحاصرته ليجمـع أيضاً هـو عساكـره ويسير إليـه، ويجتمعان هنـاك على حرب الفـرنج والاستيـلاء على بلادهـم، فبرز صلاح الديـن من القاهرة في العشريـن من المحرم، وكتب إلى نـور الدين يعرفه أن رحيلـه لا يتأخر، وكان نور الـدين قد جمع عساكـره وتجهز، وأقام ينتظـر ورود الخبر من صـلاح الديـن بـرحيله ليرحـل هو، فلما أتـاه الخبر بذلك رحـل من دمشق عازما على قصـد الكرك، فوصل إليـه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليـه، فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الـوصول باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعـض شيعة العلويين، وأنهم عازمون على الـوثوب بها، وأنـه يخاف عليها مـع البعـد عنها أن يقـوم أهلها على مـن

تخلف بهاء فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه، وتغير عليه، وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين —قلت: وقد تقدم ذكره أيضاً في ترجمة مستقلة —وقال: إذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وعقل وقال لتقي الدين: اقعد وسبه وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكنا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فكيف يكون غيرنا، وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، وإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب إليه كتاباً وتقول: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا ، يرسل المولى نجابا يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك فما ههنا من يمتنع عليك، وقال لجماعته كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريده فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر، ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على سرك وما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه، وأولا ها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحداً

من هذا العسكر، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه، ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل إليه في المعنى، وتقول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واستعمل ما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن، والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب، وتوفي نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وهذا كان من أحسن الآراء، وأجودها. انتهى ماذكره ابن الاثير.

وقال شيخنا ابن شداد في السيرة: لم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الاحسان وإفاضة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة، فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكرك والشوبك وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لايمكن أن تعبر قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها فحاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات وعاد ولم يظفر منها بشيء، فلما عاد بلغه خبروفاة والده نجم الدين أيوب قبل وصوله إليه.

قلت: وقد ذكرت تاريخ وفاته في ترجمته، قال: ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوّة عسكره، وكثرة عدده، وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي، فسير أخاه توران شاه إليه فقتله وأخذ البلاد منه، وقد بسطت القول في ذلك في ترجمته، ثم توفي نور الدين في سنة تسع وستين حسبما شرحته في ترجمته فلا حاجة إلى إعادته.

وبلغ صلاح الدين أن إنسانا يقال له الكنز جمع بأسوان خلقا كثيراً من السودان، وزعم أنه يعيد الدولة المصرية، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم فإنضافوا إلى الكنز المذكور، فجهز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً، وجعل مقدمه أخاه الملك العادل وساروا فالتقوا وكسروهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة، واستقرت له قواعد الملك، وكان نور الدين رحمه الله قد خلف ولده الملك الصالح اسماعيل المذكور في ترجمة أبيه، وكان بدمشق عند وفاة أبيه، وكان بقلعة حلب شمس الدين علي بن الداية وشاذبخت، وكان ابن الداية قد حدّث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها في المحرم من سنة سبعين ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين حسن بن الداية فقبض على سابق الدين ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن المذكور، وأودع الثلاثة في السجن وفي ذلك اليوم قتل أبو الفضل ابن الخشاب لفتنة جرت بحلب، وقيل بل قتل قبل قبض أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا تدبير ذلك.

ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن ولده الملك الصالح صبي لايستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، واختلت الأحوال بالشام، وكاتب شمس الدين المقدم ذكره صلاح الدين، فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح، فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة، وتسلم قلعتها، وكان أول دخوله دار أبيه، قلت:وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي، وهي اليوم في قبالة المدرسة العادلية مشهورة هناك بالعقيقي، قال: واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جزيلاً، وأظهر السرور بالدمشقيين، وصعد القلعة وسار إلى حلب، فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى من السنة ولم يشتغل بقلعتها وتوجه إلى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة، وهي الوقعة الأولى، ثم إن سيف الدين غازي بن قطب

الديـن مودود بن عماد الـدين زنكي صـاحب الموصل لما أحـس بما جرى علـم أن الرجـل قـد استفحل أمـره وعظـم شأنـه، وخـاف إن غفل عنـه استحوذ على البـلاد واستقرت قـدمه في الملـك وتعدى الأمـر إليه فـأنفذ عسكراً وافراً وجيشـاً عظيماً وقدم عليه أخاه عـز الدين مسعود بـن قطب الديـن مودود، وسـاروا يريـدون لقاءه ليردوه عـن البلاد، فلما بلـغ صلاح الدين ذلـك رحل عن حلب في مستهل رجب مـن السنة عائداً إلى حماه، ورجع إلى حمص فأخـذ قلعتها ووصل عز الدين مسعـود إلى حلب وأخذ معه عسكر ابن عمه الملك الصالح بن نـور الدين صاحب حلب يومئذ، وخـرجوا في جمع عظيـم، فلما عرف صـلاح الـدين بمسيرهـم سار حتـى وافاهم على قرون حماه، وراسلـوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نـالوا به غرضهم، والقضـاء يجر إلى أمور وهم بها لايشعرون، فتـلاقوا فقضـى الله تعالى أن انكسروا بين يـديه، وأسر جماعـة منهم فمـنّ عليهم، وذلـك في تاسع شهـر رمضان مـن السنة عنـد قرون حماه، ثـم سـار عقيب كسرتهم، ونـزل على حلـب وهـي الـوقعة الثـانيـة فصالحوه على أخذ المعرة وكفر طاب وماردين، ولما جرت هذه الوقعة كان سيف الدين غازي يحاصر أخاه عماد الديـن زنكي صاحب سنجار وعزم على أخذهـا منه لأنه كـان قد انتمى إلى صلاح الـدين، وكان قـد قارب أخذها، فلما بلغه الخبر أن عسكره انكسر خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمـره ويقوى جـأشه فراسلـه وصالحه، ثـم سار مـن وقته إلى نصيبين واهتـم بجمـع العسـاكر والانفـاق فيهـا، وسـاروا إلى البيرة وعبر الفرات وخيم على الجانب الشـامي، وراسل ابن عمه الصالـح نور الدين صاحـب حلب حتـى تستقر لـه قاعـدة يصل عليهـا، ثم إنـه وصل إلى حلـب، وخرج الملـك الصالـح إلى لقـائه وأقام على حلـب مدة، وصعـد قلعتها جريـدة، ثم نزل وسار إلى تـل السلطان —قلت: وهي منـزلة بين حماه وحلـب ـ قـال: ومعه جمع كبير، وراسـل صـلاح الـديـن إلى مصر يطلب عسكرها فـوصل إليه، وسار به حتى نزل إلى قـرون حماه ثم تصافوا

بكرة الخميس العاشر من شوّال سنة إحدى وسبعين، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين— قلت: هو صاحب إربل المقدم ذكره —قال: فإنه كان على ميمنة سيف الدين، فحمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده ومنع صلاح الدين من تتبع القوم، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيامهم، فإنهم تركوا أثقالهم وانهزموا، ففرق صلاح الدين الاصطبلات، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه ـ قلت: هو ابن شاهان شاه ابن أيوب وهو أخو تقي الدين عمر صاحب حماه وفرخشاه صاحب بعلبك وهو والد الملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك ـ قال: وسار إلى منبج فتسلمها، ثم سار إلى قلعة عزاز يحاصرها، وذلك في رابع ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين.

وفيها وثب جماعة من الاسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله سبحانه منهم وظفره بهم، وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشر ذي الحجة من السنة، ثم سار حتى نزل على حلب في سادس عشر الشهر المذكور وأقام عليها مدة، ثم رحل عنها، وكانوا قد أخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين سألته عزاز فوهبها لها.

ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين، وكان أخوه شمس الدولة توران شاه قد وصل إليه من اليمن، فاستخلفه بدمشق، ثم تأهب للغزاة، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم ـ قلت: وذلك الأمر يطول شرحه ـ قال: فلما انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق

وتبددوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري، وكان ذلك وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة.

وأما الملك الصالح صاحب حلب فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله، فلما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها وذلك في جمادى الأخرى من السنة، فلما رأى أهل قلعتها الخطر من جهة الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من شهر رمضان من السنة، فرحل الفرنج عنها، وأقام صلاح الدين بمصر حتى لم شعثها وشعث أصحابه من أثر كسرة الرملة، ثم بلغه تخبط الشام فعزم على العودة إليه واهتم بالغزاة، فوصله رسول قليج أرسلان صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن، فعزم على قصد بلاد ابن لاون ـ قلت: وهي بلاد سيس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل ـ قال: لينصر قليج أرسلان عليه، فتوجه إليه واستدعى عسكر حلب لأنه كان في الصلح انه متى استدعاه حضر إليه، ودخل بلاد ابن لاون وأخذ في طريقه حصناً وأخربه ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم، ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم فأجاب إلى ذلك، وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة، وعاد بعد تمام الصلح إلى دمشق، ثم منها إلى مصر، ثم توفي الملك الصالح بن نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمة والده، وكان قد استحلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ـ قلت: وقد تقدم ذكره وهو ابن عم قطب الدين مودود ـ فلما بلغ عز الدين خبر موت الملك الصالح، وأنه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين فيأخذها، وكان أول قادم إليها مظفر الدين ابن زين الدين ـ قلت: هو صاحب إربل وكان إذ ذاك صاحب حران، وهو مضاف إلى المواصلة لأن تلك البلاد كانت لهم ـ قال: فوصلها مظفر

الدين في ثالث شعبان سنة سبع وسبعين،. وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود، وصعد إلى القلعة فاستولى على ما فيها من الحواصل، وتزوّج أم الملك الصالح في خامس شوّال من السنة.

قلت: ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا أموراً ذكرتها في ترجمة عز الدين مسعود بن مودود، وترجمة أخيه عماد الدين زنكي، وترجمة تاج الملوك بوري أخي صلاح الدين فلا حاجة إلى إعادتها ههنا، فمن أراد الوقوف عليها يكشفها في هذه التراجم.

قلت: وحاصل الأمر أن عز الدين مسعود قايض أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عن حلب بسنجار، وخرج عز الدين عن حلب، ودخلها عماد الدين زنكي، فجاءه صلاح الدين وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

وقال ابن شداد: نزل عليها في سادس عشر المحرم والله أعلم فتحدّث عماد الدين زنكي مع الأمير حسام الدين طمان بن غازي في السر بما يفعله، فأشار عليه بأن يطلب منه بلاداً، وينزل له عن حلب بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال، فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي، ثم اجتمع حسام الدين طمان بصلاح الدين في السر على تقرير القاعدة في ذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب، ودفع له سنجار، والخابور، ونصيبين، وسروج، ودفع لطمان الرقة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة، وكان صلاح الدين قد نزل على سنجار وأخذها في ثامن شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأعطاها لابن أخيه تقي الدين عمر، فلما جرى الصلح على هذه الصورة أعطاها عماد الدين، وتسلم صلاح الدين قلعة حلب، وصعد إليها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين

وخمسمائة، وأقام بها حتى رتب أمورها، ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وجعل فيها ولده الملك الظاهر المقدم ذكره في ترجمة مستقلة، وكان صبياً وولى القلعة سيف الدين يازكوج الأسدي، وجعله يرتب مصالح ولده، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق في التاريخ المذكور.

قال ابن شداد: وتوجه من دمشق لقصد محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة المذكورة، وسير إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه بجمع كثير وجيش عظيم واجتمع به على الكرك في رابع شعبان من السنة، فلما بلغ الفرنج الخبر حشدوا خلقا كثيراً، وجاؤوا إلى الكرك ليكونوا في قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسير إليها ابن أخيه تقي الدين عمر، ورحل عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة، واستصحب أخاه الملك العادل معه ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة وأعطاه حلب ودخلها في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة، وخرج الملك الظاهر ويازكوج ودخلا دمشق في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوّال من السنة، وكان الملك الظاهر أحب أولاده إليه لما فيه من الخلال الحميدة، ولم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها في ذلك الوقت، وقيل إن العادل أعطاه على أخذ حلب ثلاثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد والله أعلم.

ثم إن صلاح الدين رأى عود الملك العادل إلى مصر، وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح، قيل كان سبب ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر قال لصلاح الدين وكان بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد، وقد سايره يوما، وكان من أمراء حلب، والملك العادل لا ينصفه ويقدم عليه غيره، وكان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل، وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك، فلما عوفي رجع إلى الشام واجتمعا في

المسير،قال له وكان صلاح الديـن قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد:بـأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأنك كنـت خارجاً إلى الصيد وتعود فـلا يخالفونك،أما تستحي أن يكون الطـائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال: وكيف ذاك وهو يضحك؟ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصـد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنـت سلمت الحصون إلى أهلـك وجعلت أولادك على الأرض، هـذه حلب وهـي أم البلاد بيـد أخيـك، وحماة بيـد ابـن أخيـك، وحمص بيد ابـن أسـد الـديـن، وابنـك الأفضل مع تقي الـدين بمصر يخرجه متى شاء، وابنك الآخـر مع أخيك في خيمة يفعـل به ما أراد، فقال لـه: صدقت فـاكتم هذا الأمر، ثـم أخذ حلب من أخيـه وأعطاها ولده الملـك الظاهر، وأعطى الملـك العادل بعد ذلـك حران والـرهاوميـا فارقين ليخـرجه مـن الشام، ويتـوفر الشـام على أولاده فكان ما كان.

قلت: وقـد تقدّم في تـرجمة عز الديـن مسعود بن قطـب الديـن مودود صاحب الموصل فصل يتعلق بنزول صـلاح الدين على الموصل وحصارها ثلاث مـرات، ولم يقدر عليها. قال شيخنـا ابن الأثير في تاريخه: إنـه نزل عليها في الدفعة الثـالثة، وكان زمن الشتاء، وعزم على المقـام واقطاع جميع الموصل وكـان نزولـه في شعبان من سنـة إحدى وثمانين وخمسمائة، فـأقام شعبـان وشهر رمضـان، وتـرددت الرسـل بينـه وبين صـاحبها فبينما هـو كذلك مرض صـلاح الدين فعاد إلى حران ولحقته الرسل بـالإجابة إلى ما طلب، ثم الصلح على أن يسلم إليـه صاحب الموصل شهر زور و أعمالها وولاية قـالي قلا ومـاوراء الزاب من الأعمال، وأن يخطـب له على المنـابر وينقش اسمـه على السكة فلما حلف أرسـل صلاح الـدين نوّابـه وتسلم البـلاد التي استقـرت القـاعـدة على تسليمها، وطـال المرض على صـلاح الديـن بحران، واشتد بـه حتى يئسـوا منه، فحلف النـاس لأولاده، وكان عنده منهم الملـك العزيز عماد الديـــن عثمان وأخوه العادل جـاءه من حلب وهو ملكها يـومئذ وجعل لكل واحد شيئاً مـن البلاد وجعل الملك

العادل وصياً على الجميع، ثم إنه عوفى وعاد إلى دمشق في المحرم من سنة اثنين وثمانين، ولما كان مريضاً بحران كان عنده ناصر الدين محمد ابن عمه، وله من الاقطاع حمص والرحبة، فسار من عنده إلى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الأحداث ووعدهم وأعطاهم مالاً على تسليم دمشق إليه إذا مات صلاح الدين فعوفي فلم يمض إلا قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد النحر من السنة، فإنه شرب الخمر فأكثر منه فأصبح ميتاً، وقيل إن صلاح الدين وضع عليه إنساناً فحضر عنده ونادمه وسقاه سما، فلما أصبحوا من الغد لم يروا ذلك الشخص، وكان يقال له الناصح بن العميد، فسألوا عنه فقالوا : إنه سار من ليلته، وكان هذا مما قوّى الظن والله أعلم، فلما توفي أعطى اقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف من الأموال والدواب والأثاث شيئاً كثيراً، فحضر صلاح الدين إلى حمص، واستعرض تركته، وأخذ أكثرها، ولم يترك إلاّ ما لا خير فيه.

ثم قال شيخنا بعد هذا كله: وبلغني أن شيركوه حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة، فقال له: إلى أين بلغت في القرآن؟ فقال له: إلى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) فعجب الجماعة وصلاح الدين من ذكائه، والله أعلم بصحة ذلك.

قال ابن شداد: ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق عقيب مرضه وابلاله، سير طلب أخاه الملك العادل فخرج من حلب جريدة يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين، ومضى إلى دمشق فأقام في خدمة السلطان صلاح الدين، وجرت بينهما أحاديث ومراجعات وقواعد تتقرر إلى جمادى الآخرى من السنة، فاستقر الأمر على عود الملك العادل إلى مصر، وأخذت حلب منه، وسار الملك الظاهر إليها ودخل قلعتها يوم السبت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

وقد ذكرت في ترجمة الملك الظاهر أنه دخل حلب مالكاً لها في مثل يوم وفاته، وعينت هناك التاريخ واسم اليوم، هكذا وجدته، وما أدري من أين نقلته وسلم السلطان ولده الملك العزيز إلى العادل وجعله أتابكه.

قال ابن شداد: قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يا مولانا أن السلطان أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المقدمين كثير وما يخلو أن يقال عني مالا يجوز ويخوفونك مني فإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقل لي حتى لا أجيء؟ فقال: كيف يتهيأ لي أن أسمع منهم أو أرجع إلى رأيهم، ثم التفت إلى الملك الظاهر، وقلت له:أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فيّ أقوال المقدمين وأنا فمالي إلاّ أنت وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه فقال: مبارك، وذكر لي كل خير، وزوّج السلطان ولده الملك الظاهر غازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من رمضان من السنة.

ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين، قال: وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدوّ في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت بمن اجتمع له من العساكر الاسلامية وكانت عدّة تجوز العدّ والحصر على تعبية حسنة وهيئة جميلة، وكان قد بلغه عن العدو أنه اجتمع في عدّة كثيرة بمرج صفورية بأرض عكا، عندما بلغهم اجتماع العساكر الاسلامية، فسار ونزل على بحيرة طبرية على سطح الجبل ينتظر قصد الفرنج له إذا بلغهم نزوله بالموضع المذكور، فلم يتحركوا ولم يخرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم بالموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين

من شهر ربيع الآخر، فلما رآهم لا يتحركون عن منزلتهم نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة العدوّ، ونازل طبرية وهجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما بها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة محتمية بمن فيها، ولما بلغ العدوّ ما جرى على طبرية قلقوا لذلك، ورحلوا نحوها، فبلغ السلطان ذلك، فترك على طبرية من يحاصرها، ولحق بالعسكر فالتقى بالعدوّ على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، وحال الليل بين العسكرين فباتا على مصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال، واشتد الأمر، وذلك بأرض قرية تعرف بلوبيا، وضاق الخناق بالعدوّ وهم سائرون كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون، وقد أيقنوا بالويل والثبور، وأحست نفوسهم أنهم في غد يومهم ذلك من زوّار القبور، ولم تزل الحرب تضطرم والفارس مع قرنه يصطدم، ولم يبق إلاّ الظفر ووقع الوبال على من كفر، فحال بينهم الليل بظلامه، وبات كل واحد من الفريقين بمقامه، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد العدوّ، وأنهم لاينجيهم إلاّ الاجتهاد في القتال، فحملت أطلاب المسلمين من كل جانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقا عليه نصر المؤمنين، ولما أحس القومس بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر وقصد جهة صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وكفى الله شره، وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحكموا فيهم السيوف، وسقوهم كأس الحمام، وانهزمت طائفة منهم فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها أحد، واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون، وأشعلوا حولهم النيران، واشتد بهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كادوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل لما مر بهم، فأسر مقدميهم،

وقتل الباقون، وكان ممن أسر من مقدميهم الملك كي وجفري أخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبرية ومقدم الديوية، وصاحب جبيل، ومقدم الاسبتار.

قال ابن شداد: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان.

ثم إن القومس الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس، فأصابه ذات الجنب فهلك منها، وأما مقدما الاسبتارية والديوية فإن السلطان قتلهما، وقتل من بقي من صنفهما حياً وأما البرنس أرناط، فإن السلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك لأنه كان قد عبر به عند الشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ، صلى الله عليه وسلم، وبلغ ذلك السلطان فحملته حميته ودينه على أن يهدر دمه، ولما فتح الله عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد، وعرضت عليه الأسارى، وصار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله تعالى على يديه للمسلمين، ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكراً لله تعالى على ما أنعم به عليه واستحضر الملك كي وأخاه والبرنس أرناط وناول السلطان كي شربة من جلاب وثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها البرنس وقال السلطان للترجمان:قل للملك أنت الذي سقيته، وأما أنا فما سقيته، وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن، فقصد السلطان بقوله ذلك، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم، فمضوا بهم إليه، فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم، وأقعد الملك في دهليز الخيمة، واستحضر البرنس أرناط، وأوقفه بين يديه وقال له: ها أنا

أنتصر لمحمد منك ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل فسل النمشاة، فضربه بها فحل كتفه، وتمم قتله من حضر، وأخرجت جثته ورميت على باب الخيمة، فلما رآه الملك كي على تلك الحالة لم يشك في أنه يلحقه به فاستحضره وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء.

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بحمد الله تعالى وشكره وتهليله وتكبيره حتى طلع الفجر، ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر، وتسلم قلعتها في ذلك النهار، وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء، ثم رحل طالباً عكا، فكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين فأخذها، واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين، وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس، وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة، وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم، ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأساراها سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فنصب عليها المناجيق، وضيق بالزحف خناق من فيها، وكان فيها أبطال معدودون، وفي دينهم متشددون، فقاتلوا قتالاً شديداً، ونصره الله سبحانه وتعالى عليهم، فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشر عنوة وأسر من بقي فيها بعد القتل، ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها عند نزوله عليها، وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وأقام عليها ريثما قرر قواعدها، وسار حتى أتى بيروت ، فنزل عليها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، وركب عليها المجانيق وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر

المذكور، وتسلم أصحابه جبيل وهو على بيروت، ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها، ثم رأى أن العسكر تفرق في الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه، وكانوا قد ضرسوا من القتال، وملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الفرنج، فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها أيسر من صور، فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة، وتسلم في طريقة إليها مواضع كثيرة كالرملة والدارون، وأقام على عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديداً وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من السنة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون من غير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، هكذا ذكر شيخنا ابن شداد في السيرة، وذكر الشهاب ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعاوالمختلف صقعاً أنهم أخذوها من المسلمين في رابع عشر جمادى الآخرة من السنة.

قال ابن شداد: لما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار نحوه معتمدا على الله تعالى مفوّضاً أمره إليه منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله صلى الله عليه وسلم: من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه، وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وكان نزوله بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، وحزر أهل الخبرة ممن كان معه من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفا خارجاً عن النساء والصبيان، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب المناجيق، وضيق البلد بالزحف والقتال

حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم، ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لامدفع له عنهم، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة، وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر، وعلى حصونهم من التخريب والهدم، وتحققوا أنهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه فاستكانوا وأخذوا في طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسليمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم، فانظر إلى هذا الاتفاق الغريب العجيب ، كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمن الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى، وكان فتحه عظيما شهده من أهل العلم خلق ومن أرباب الحذق والزهد عالم، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسره الله تعالى على يده من فتح الساحل، وقصد القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف أحد منهم، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وخطب الخطيب.

قلت: وقد تقدم في ترجمة القاضي محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي ذكر الخطبة التي خطب بها ذلك اليوم، فيكشف منه، ورأيت في رسالة القاضي الفاضل المعروفة بالقدسية أن الخطبة أقيمت يوم الجمعة رابع شعبان، وإذ قد ذكرنا فتوح القدس، وقد تقدم ذكر الخطبة التي خطب يوم الجمعة بها يليق أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الامام المستضيء بأمر الله تتضمن الفتوح فإنها بديعة بليغة في بابها ولم أذكرها بكمالها بل اخترت منها أحسنها، وتركت الباقي لأنها طويلة، وهي : «أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي ولازال مظفر الجد بكل جاحد، غنيا بالتوفيق عن رأي كل زائد، موقوف المساعي عن اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والنصل في جفنه راقد وارد الجود

والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلفى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنيل غوي ورئيس راشد، لازالت غيوث فضله إلى الاولياء أنواء إلى المراتع وأنوار إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الاعداء خيلاً إلى المراقب، وخيالاً إلى المراتب، قد كتب الخادم هذه الخدمة تلوما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير لصبح هذه العزمه، والعنوان لكتاب وصف النعمه، فإنها بحر للاقلام فيه سبح طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في اظهارها مشارب، ولله تعالى في إعادة شكره رضاء وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى، ولقد صارت أمور الاسلام إلى أحسن مصائرها وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه، والفوز معروضا قد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر الحق وكان مستضعفا وأهل ربعه، وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، وأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عند حسان الجبين، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بمالم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة، قلوبهم كما يشفي الماء عللهم، ولما قدم الدين عليها عرق منها سويداء قلبه، وهناً كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلاّ لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلاّ رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من يستملكه في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتفادى في عتبه إلا لتكون الكلمة مجموعة، فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسن ربما

سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفاها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر، وإلا فإن العقود تلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الجهاد، ولا يراعى به حقه في العباد، ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوّفه الخادم من أئمة قضوا بالحق وكانوا يعدلون، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يتساءلون لا جرم أنهم أورثوا اسرهم وسريرهم، خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطليعتهم المنيفة، وعنوان صحيفة فضلهم لاعدم سواد القلم وبياض الصحيفة، فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً، ومنه مقبولاً، وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ماعبقت به جيوبها، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا، والنهار به بصيرا، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأنواره فإنه نور لا تكنه اغساق السدف، وذكر لاتوازيه أو راق الصحف، وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدوّ الذي تشظت قناته، وطارت من فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته، وكان الأكثر عددا وحصا، وكلت حملاته، وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان، وعقوبة من الله ليس لصاحب بيتها يدان، وعثرت قدمه، وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطق الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو زاعقة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث والرب الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومه، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في الحديد لهم عصر، ولا في

نار الألفة لهم نصر، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة، إلى أيدي أصحاب الميمنة، وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى، فأمده الله بمداركته وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعد هاجبر، وصرعهم صرعة لاينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن المصاف بخيل فالة قتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الاكسار، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقاوض الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القران على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخاً، وكان الاسلام مولودا، وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلاّ وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلاله خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عهد وأوثقه، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه، وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، وذهبت دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا القومس،وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، مليا يوم الخذلان بالاختبال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك،وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطوا ها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً البيضاء صنعا، الخافقة هي وقلوب أعدائها الغالبة هي

وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارهـا، إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلاد كذا وكذا وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفـدن، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجـوامع ومنابر، وجموع وعساكر، يتجـاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه، بعـد أن ينتهزها، ويحصد منها كفـراً، ويزرع ايماناً، ويحط من جوامعهـا صلبا، ويرفع أذانـا، ويبدل المذابح منابـر، والكنائس مساجـد، ويبوىء أهـل القرآن بعـد أهل الصلبـان، للقتال عـن دين الله مقاعـد، ويقر عينه وعين أهل الاسـلام أن يعلق النصر منه ومـن عسكره بجار ومجرور، وأن يظفر بكل سور مـا كان يخاف زلزلة ولا زايله عسراً إلى يوم النفـخ في الصور، ولما لم يبـق إلا القدس وقد اجتمـع إليه كـل شريد منهم وطريـد، واعتصم بمنعته كل قـريب منهم وبعيد، وظنـوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله سبحانه شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلـدا كبلاد، وجمعـا كيـوم التنـاد، وعزائم قـد تـألبـت على الموت فنزلـت بعرصتـه، وهان عليهـا مورد السيـف وأن تموت بغصته، فـزاول البلد مـن جانـب فإذا أودية عميقـة، ولجج وعر غريقـه، وسور قد انعطـف عطف السوار، وأبـرجة قد نزلـت مكان الواسطـة من عقر الدار، فعـدل إلى جهة أخـرى كان للمطـالـع عليها معـرج، وللخـيل فيهـا مفـرج، فنزل عليهـا وأحـاط بها، وقرب منهـا وضرب خيمته بحيـث ينالـه السلاح بـأطرافـه، ويزاحمه السور بأ كنافـه وقابلها ثم قاتلها ونزلها ، ثم نـازلها وحاجزها، ثم ناجـزها وضمهـا ضمة ارتقب بعـدها الفتح، وصـدع جمعها فـإذا هم لا يبصرون على عبـودية الحد عـن عنـق الصفح، فـراسلـوه ببذل قطيعـة إلى مدة، وقصـدوا نظرة مـن شدة، وانتطـار النجدة، فعـرفهم الخادم في لحن القول، وأجـابهم بلسان الطـول، وقدم المنجنيقـات التي تتـولى عقوبـات الحصون عصيها وحبالها، وأوتـر لهم فيها التي ترمي ولا تفارقهـا سهامها، ولكن تفـارق سهامهـا نصالها، فصـافحت السـور فإذا سهمهـا في ثنايـا شرفـاتها سواك، وقـدم النصر شرا مـن المنجنيـق يخلد خـلاده إلى الأرض

ويعلو علوه إلى السماك فشبح مرادع أبراجها، واسمع صوت عجيجها صم أعلاجها، ورفع منار عجاجها فأخلى السور من السياره، والحرب من النظاره، وأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سربه بأنياب معموله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة الأنملة، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه باستغاثته إلى أن كادت ترق لمقلته وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن يبرح الأرض، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده (الكافر باليتنى كنت تراباً) فحينئذ يأس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ، وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوه، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكه، وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة، وطرح جنبه على التراب، وكان جنبا لايتعاطاه طارح، وبذل مبلغا من القطيعة لا يطمح إليها أهل طامح، وقال: ههنا أسارى مسلمون يتجاوزون الالوف، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار بدأبهم فعجلوا وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ثم استقتلوا فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولا يفك سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف، فأشار الأمراء بأخذ الميسور من البلد المأسور، فإنه لو أخذ حربا فلا بد أن يقتحم الرجال الأنجاد وتبذل نفوسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفلكات، وأثقل الحركات، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون، وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان لا جرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم فإنهم خذلهم الله حموها بالأسل والصفاح، وبنوها بالعمد والصفاح

وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوبة والاسبتارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي لا يطر دماؤه، ولا يتطرد لألاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه وتفنن في توشيعة إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد كالذهب الذي فيه نعيم عتيد،فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق، وأوعز الخادم بردّ الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات يتفطرن للنجوم لا للوجوم، والكواكب منها تنتشر للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بربمن بر، وخفق علما في حفافيه فلو طار سرور اً لطار بجناحيه، وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ماضاق بتمادي الحرب من الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشقاء قد أوردت مواردها، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها، وأكلت غلالها فهي بلاد ترفد ولا تسترفدُ، وتجم ولا تستنفد، ينفق عليها ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها وتقام المرابط بساحلها، وبدأ في عمارة أسوارها، ومر مات معاقلها، وكل مشقة بالاضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولامعتزله، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع ، ولن يفكوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع، وهذه البشائر الزبد، لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتخلص، فلذلك نفذ الخادم لسانا شارحاً، ومبشرا صادحاً يطالع بالخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته، وهو فلان والله الموفق». هذا آخر الرسالة الفاضلية وكان في عزمي اختصارها،

والاقتصار على محاسنها، فلما شرعت فيها قلت في نفسي : عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها، ورجعت عن الرأي الأول، وهي قليلة الوجود في أيدي الناس، وكانت النسخة التي نقلتها سقيمة، ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صحت هذه الصورة حسب الا مكان وقد عمل عماد الدين الاصبهاني الكاتب رسالة في فتح القدس أيضاً، فلم أر التطويل بكتابتها، فتركتها، وجمع كتابا سماه « الفيح القيسي في الفتح القدسي» وهو في مجلدين ذكر فيه جميع ما جرى في هذه الواقعة، ورأيت منذ زمان رسالة مليحة أنشأها ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف النون، تتضمن فتح القدس أيضاً، وكل واحد من أرباب صناعة الإنشاء كان يريد أن يمتحن خاطره بما يعمل في ذلك.والقاضي الفاضل رئيس هذا الفن،وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يجاريه ولا يباريه، فلهذا أتيت برسالته، ورفضت غيرها خوف الإطالة.

وكان قد حضر الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النابلسي الشاعر المشهور هذا الفتح فأنشد السلطان صلاح الدين قصيدته المشهورة التي أولها:

هذا الذي كانت الأيام تنتظر
فليوف لله أقوام بما نذروا

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدحه ويهنيه بالفتح، وإذ قد نجز المطلوب من هذا الأمر فلنرجع إلى تتمة ما ذكره شيخنا بهاء الدين بن شداد في السيرة الصلاحية قال: ونكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيما، ونصر الله الاسلام على يده نصراً عزيزاً.

قلت: وقد تقدم في ترجمة أرتق طرف من أخبار القدس، وأن الأفضل أمير الجيوش بمصر أخذه من ولديه سقمان وايل غازي، ثم أن الفرنج

استولوا عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقبل في ثاني شعبان، وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة، ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه صلاح الدين في التاريخ المذكور.

نعود إلى كلام ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرين ديناراً، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل ذكر صغيراً وأنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه، وإلا أخذ أسيراً وأفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما، وأقام به يجمع الأموال، ويفرقها على الأمراء والرجال، ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه، وتقدم بايصال من أقام بقطيعته إلى مأمنه، وهي مدينة صور، ولم يرحل عنه ومعه من المال الذي جبي له شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان رحيله عنه يوم الجم ة الخامس والعشرين من شعبان من السنة.

ولما فتح القدس حسن عنده فتح صور، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما عسر عليه، فسار نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها، ونظر في أمورها، ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من السنة، فنزل قريبا منها، وأرسل لإحضار آلات القتال، ولما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتلها وضايقها قتالاً عظيما ، واستدعى اسطول مصر فكان يقاتلها في البر والبحر، ثم سير من حاصر هونين، فسلمت في الثالث والعشرين من شوّال من السنة، ثم خرج أسطول صور في الليل فكبس أسطول المسلمين وأخذوا المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين وقتلوا خلقا كثيراً من رجال المسلمين، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور، وعظم ذلك السلطان، وضاق صدره، وكان الشتاء قد هجم، وتراكمت الأمطار، واستشارهم فيما

يفعلون فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال، ويجتمعوا للقتال، فرحل عنها وحملوا من آلات الحصار ما أمكن وحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله لكثرة الوحل والمطر، وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة من السنة، وتفرقت العساكر، وأعطى كل طائفة منها دستورا، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم نزلوا على كوكب في أوائل المحرم من السنة، ولم يبق معه من العسكر إلا القليل، وكان حصناً حصيناً، وفيه الرجال والأقوات، فعلم أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد، فرجع إلى دمشق ودخله في سادس شهر ربيع الأول من السنة.

قال ابن شداد: ولما كان على كوكب وصلت إلى خدمته، ثم فارقته ومضيت إلى زيارة القدس والخليل عليه السلام، ودخلت دمشق يوم دخول السلطان إليها —قلت: وقد ذكرت هذا في ترجمته— وأقام بدمشق خمسة أيام، ثم بلغه أن الفرنج قصدوا جبيل واغتالوها فخرج مسرعا وكان قد سير يستدعي العساكر من جميع المواضع، وسار يطلب جبيل ، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك، وكان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه فسار نحو حصن الأكراد.

قال ابن شداد في السيرة إنه اتصل بخدمة السلطان في مستهل جمادى الأولى من سنة أربع وثمانين، وجميع ما ذكرته بروايتي عمن أثق به، ومن ههنا ما أسطر إلا ما شاهدته، وأخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان، قال: لما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبية حسنة، ورتب الأطلاب وسارت الميمنةأولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين فوصل إلى أنطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ينظر إليها لأن قصده كان جبلة فاستهان أمرها فسير من

رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر والميسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعه والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين فركبوا وقاربوا البلد، وزحفوا واشتد القتال وباغتوها فما استتم نصب الخيام حتى صعد المسلمون سورها وأخذوها بالسيف، وغنم المسلمون جميع ما فيها وما بها، وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين، فما زال يحاربه حتى أخربه، واجتمع به ولده الملك الظاهر لأنه كان قد طلبه فجاءه في عسكر عظيم، ثم سار يريد جبلة وكان وصوله إليها في ثاني عشر جمادى الأولى،فما ستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد، وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً، ثم سار عنها إلى اللاذقية، وكان نزوله عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، وهو بلد خفيف على القلب غير مسوّر وله مينا مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، واشتد القتال إلى آخر النهار وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار، وجدّوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول النقب ستين ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لا ذوا يطلبون الأمان وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة نفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ماخلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب فأجابهم إلى ذلك، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم السبت، وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر، فرحل عنها إلى صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من الشهر، واجتهد في القتال، فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادى الأخرى، ثم تقدموا إلى القلعة وصدقوا القتال فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان، فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير، ومن كل صغير ديناران الذكر والانثى سواء، وأقام السلطان بهذه الجهة حتى أخذ عدة

قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المنيعة المتعلقة بصهيون، ثم رحل عنها وأتى بكاّس، وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها يوم الثلاثاء سادس جمادى الأخرى، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر، ثم يسر الله فتحها عنوة، فقتل أكثر من بها، وأسر الباقون، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها، ولها قلعة تسمى الشغر وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بجسر وليس عليها طريق فسلطت المناجيق عليها من جميع الجوانب، ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، ثم سألوا المهلة ثلاثة فأمهلوا، وكان تمام فتحها وصعود ا لعلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشر الشهر، ثم سار إلى برزية وهي من الحصون المنيعة في غاية القوّة يضرب بها المثل في بلاد الفرنج، يحيط بها أودية من جميع جوانبها وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً، وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر، ثم أخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه، ثم سار إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة، وقاتلها قتالاً شديداً، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب وأعطاها الأمير علم الدين سليمان ابن جندر، وسار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من الشهر، ونزل على بغراس وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، قاتلها مقاتلة شديدة وصعد العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر من البيكار، وكان الصلح معهم لا غير على أن يطلقوا كل أسير عندهم، والصلح إلى سبعة أشهر فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد، ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه إلى ذلك فوصل حلب في حادي عشر شعبان وأقام بالقلعة ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام، وسار من حلب فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماة، وصنع له طعاماً وأحضر له سماعا من

جنس ما تعمل الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية، وسار على طريق بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صفد فنزل عليها، ولم يزل القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوّال، وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك، سلمها نواب صاحبها وخلصوه بذلك فإنه كان أسيراً من نوبة حطين.

قلت: هكذا ذكره، وهذا لا ينتظم مع ما قبله، فقد تقدم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين، ثم قتله السلطان بيده فيكشف عن هذا في مكان آخر ليتحقق.

قال: ثم سار إلى كوكب وضايقوها وقاتلوها مقاتلة شديدة، والأمطار متوالية والوحول والرياح عاصفة، والعدو متسلط لعلوّ مكانة، فلما تيقنوا أنهم مأخوذون طلبوا الأمان فأجابهم اليه وتسلمها منهم في منتصف ذي القعدة من السنة، ثم نزل الغور وأقام بالمخيم بقية الشهر وأعطى الجماعة دستوراً، وسار مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر، ودخل القدس في ثامن ذي الحجة وصلى بها العيد، وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر إلى أمورها، وأخذ ها من أخيه العادل، وعوّضه عنها الكرك، ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها، ثم دخل عكا، فأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين، وأصلح أمورها، ورتب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة سورها.

وسار إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر من السنة وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة ثم خرج إلى شقيف أرنون، وهو موضع حصين، فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع عشر شهر ربيع

الأول، وأقام أياماً يباشر قتاله كل يـوم، والعساكر تتواصل إليه، فلما تحقق صاحـب الشقيف أنه طاقـة له به نزل إليـه بنفسه فلم يشعر بـه إلا وهو قائم على باب خيمته، فـأذن له في دخوله إليه وأكرمـه واحترمه، وكان من أكبر الفرنج وعقلائهـم، وكان يعرف بالعربية وعنـده اطلاع على شيء من التـواريخ والاحـاديـث، وكان حسـن التـأتي لما حضر بين يدي السلطـان وأكل معـه الطعام،ثم خلا بـه وذكر أنه مملـوكه وتحت طاعته وأنـه يسلم إليه المكان من غير تعب،واشترط أن يعطى موضعـا يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لايقدر على مسـاكنة الفرنج، واقطاعا يقوم بـه وبأهله، وشروطا غير ذلـك، فـأجابـه إلى ذلـك، وفي أثنـاء شهر ربيـع الأول وصلـه الخبر بتسليم الشوبـك، وكان السلطان قد أقـام عليه جمعاً يحاصرونه مـدة سنة كاملة إلى ان نفـد زاد من كان فيه فسلموه بالأمـان ثم ظهر للسلطان بعـد ذلـك أن جميع مـا قـالـه صـاحـب الشقيـف كـان خـديعـة فرسم عليـه، ثم ظهر له أن الفرنـج قصدوا عكا ونزلـوا عليها يوم الاثنين ثـالـث عشر رجـب سنـة خمس وثمانين، وفي ذلـك اليـوم سير صـاحـب الشقيف إلى دمشق بعد الإهـانة الشديدة، وأتى عكا ودخلهـا بغتة ليقوي قلوب مـن بها، وسير استدعـى العساكـر من كـل ناحيـة فجاءتـه، وكان العـدوّ بمقدار ألفـي فـارس وثـلاثين ألف راجـل، ثـم تكـاثر الفـرنـج، واستفحل أمـرهم، وأحاطـوا بعكا، ومنعوا مـن يدخل ويخرج، وذلـك يوم الخميس سلـخ رجب، فضاق صدر السلطـان لذلك، ثم اجتهـد في فتح الطريق إليها لتستمـر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمـراء فاتفقوا على مضـايقة العـدوّ لينفتح الطـريق ففعلـوا ذلـك وانفتح الطـريق، وسلكـه المسلمـون، ودخـل السلطـان عكـا فـأشرف على أمـورهـا ثـم جـرى بين الفريقين منـاوشات في عـدة أيام، وتأخـر الناس إلى تـل العياضيـة، وهو مشرف على عكا، وفي هـذه المنزلة تـوفي الأمير حسام الديـن طمان المقدم ذكـره في هـذه الترجمة، وذلـك ليلـة نصـف شعبـان سنـة خمس وثمانين وخمسمائة، وكان من الشجعان.

ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا وقعات ليس لنا غرض في ذكرها، وتطول هذه الترجمة باستيفاء الكلام فيها إذ ليس الغرض سوى المقاصد لا غير، وإنما ذكرت فتوحات هذه الحصون لأن الحاجة قد تدعو إلى الوقوف على تواريخها، مع أني لم أذكر إلاّ ما يكثر التطلع إلى الوقوف عليه، وأضربت عن الباقي. قال ابن شداد: سمعت السلطان ينشد وقد قيل له أن الوخم قد عظم بمرج عكا، وأن الموت قد فشا في الطائفتين

اقتلـــــــوني ومـــــــالكـــــــا
واقتلـــــــوا مـــــــالكـــــــا معـــــــي

يريد بذلك أنه قد رضي أن يتلف كما أتلف الله أعداءه

قلت: وهذا البيت له سبب يحتاج إلى شرح، وذلك أن مالك بن الحارث المعروف بالأشتر النخعي كان من الأبطال المشهورة، وهو من خواص أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تماسك في يوم وقعة الجمل المشهورة هو وعبد الله بن الزبير بن العوّام، وكان أيضاً من الأبطال، وابن الزبير يومئذ مع خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وكانوا يحار بون عليا رضي الله عنه فلما تماسكا صار كل واحد منهما إذا قوي على صاحبه جعله تحته وركب صدره، وفعلا ذلك مراراً، وابن الزبير ينشد:

اقتلـــــــوني ومـــــــالكـــــــا
واقتلـــــــوا مـــــــالكـــــــا معـــــــي

يريد الاشتر النخعي، هذه خلاصة القول في ذلك وإن كانت القصة طويلة، وهي في التواريخ مبسوطة، وقال عبد الله بن الزبير: لاقيت الاشتر النخعي يوم الجمل، فما ضربته ضربة حتى ضربني ستا أو سبعاً، ثم أخذ برجلي وألقاني في الخندق، وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبداً، وقال أبو بكر ابن أبي شيبة: أعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بسلامة ابن

الـزبير لما لاقى الاشتر النخعـي عشرة آلاف درهـم،وقيل أيضـاً إن الاشتر دخـل على عائشـة رضي الله عنها بعـد وقعة الجمـل، فقالـت له:يـا أشتر أنت الذي أردت قتل ابن أختي يوم الوقعة، فأنشدها:

أعـائش لـو لا أننـي كنـت طـاويـا
ثـلاثـا لألفيـت ابـن أختـك هـالكـا
غـداة ينـادي والـرمـاح تنـوشـه
بـآخـر صـف اقتلـوني ومـالكـا
فنجـاه منـى أكلـه وشبـابـه
وخلـوة جـوف لم يكـن متماسكـا

وقـال زهير بن قيـس: دخلت مـع عبد الله بـن الزبير الحمام، فـإذا في رأسـه ضربة لـو صب فيهـا قارورة دهـن لاستقر، فقـال لي: أتدري مـن ضربني هذه الضربة؟ قلت: لا،قال ابن عمك الأشتر النخعي.

رجعنا إلى مـا كنا فيه، قـال ابن شداد: ثم إن الفـرنج جاءهـم الأمداد من داخـل البحر، واستظهـروا على الجماعة الإسـلامية بعكـا، وكان فيهـم الأمير سيـف الديـن علي بن أحمد المعـروف بـالمشطوب الهكـاري والأمير بهاء الدين قـراقوش الخادم الصلاحي، وضـايقوهم أشد المضـايقة إلى أن غلبوا على حفـظ البلد، فلما كان يـوم الجمعة سابـع عشر جمادى الأخرى من سنة سبع وثمانين وخمسمائة، خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب من المسلمين يـذكـرون حالهم ومـا هـم فيـه، وأنهم قد تيقنـوا الهلاك، ومتـى أخـذوا البلد عنـوة ضربت رقـابهم، وأنهم صـالحوا على أن يسلموا البلـد وجميـع مـا فيـه مـن الآلات والأسلحة والمراكـب، ومـائتـي ألـف دينـار وخمسمائة أسير مجاهيـل، ومـائة أسير معينين مـن جهتهـم، وصليـب الصلبـوت ، على أن يخرجوا بـأنفسهـم سالمين، ومـا معهـم من الأمـوال والأقمشة المختصة بهم وذرار يهم ونسائهم، وضمنـوا للمركيس لأنه كان الواسطة في هـذا الأمر أربعة آلاف دينار، ولما وقـف السلطان على الكتب المشار إليهـا أنكر ذلك انكاراً عظيماً، وعظـم عليه هذا الأمـر، وجمع أهل

الرأي من أكابر دولته وشاورهم فيما يصنع، واضطربت آراؤه، وتقسم فكره، وتشوّش حاله، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه، وهو يتردد في هذا، فلم يشعر إلاّ وقد ارتفعت أعلام العدوّ وصلبانه وناره وشعاره على أسوار البلد، وذلك في ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من السنة، وصاح الفرنج صيحة عظيمة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد أمرهم وحزنهم، ووقع فيهم الصياح والعويل والبكاء والنحيب.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الفرنج خرجوا من عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها، وساروا على الساحل والسلطان وعساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف وكان بينهما قتال عظيم ونال المسلمين منه وهن شديد، ثم ساروا على تلك الهيئة تتمة عشرة منازل من مسيرهم من عكا، وأتى السلطان الرملة وأتاه من أخبره بأن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أر باب مشورته، وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب خرابها أم إبقاؤها فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل قبالة العدوّ، ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفا من أن يصل العدو إليها ويستولى عليها وهي عامرة، ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريق مصر وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا، ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات، وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، ، فسار إليها سحرة الأربعاء ثامن عشر الشهر.

قال ابن شداد: وتحدث معي في معنى خرابها بعد أن تحدث مع ولده الملك الأفضل في أمرها أيضاً، ثم قال: لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً، ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة في ذلك، قال: ولما اتفق الرأي على خرابها

أوقع الله تعالى في نفسه ذلك، وأن المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها، وشرع في خرابها سحرة يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة وقسم السور على المسلمين، وجعل لكل أمير من العسكر بدنة معلومة وبرجا معينا يخر برنه، ودخل الناس البلد، ووقع فيهم الضجيج والبكاء، وكان بلداً خفيفا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه، فلحق الناس على خرابه حزن عظيم، وعظم عويل أهل البلد عليه لفراقهم أوطانهم وشرعوا في بيع مالا يقدرون على حمله، فباعوا ما يساوي عشرة آلاف بدرهم، وباعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم واحد، واختبط البلد وخرج الناس بأهلهم وأولادهم إلى المخيم وتشتتوا، فذهب قوم منهم إلى مصر، وقوم إلى الشام، وجرت عليهم أمور عظيمة، واجتهد السلطان وأولاده في خرابها كي لايسمع العدو فيسرع إليه، ولايمكن من خرابها، وبات الناس على أصعب حال وأشد تعب مما قاسوه في خرابها.

وفي تلك الليلة وصل من جناب الملك العادل من أخبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح، وطلبوا جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطان أن في ذلك مصلحة لما علم من نفوس الناس من الضجر من القتال، وكثرة ما عليهم من الديون، وكتب إليه يأذن له في ذلك، وفوض الأمر إلى رأيه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان، وهو مصر على الخراب، واستعمل الناس عليه وحثهم على العجلة فيه وأباحهم ما في الهري الذي كان على الميرة مذخوراً خوفاً من هجوم الفرنج والعجز عن نقله ، وأمر باحراق البلد فأضرمت النيران في بيوته، وكان سورها عظيماً، ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سلخ شعبان من السنة، وأصبح يوم الاثنين مستهل شهر رمضان أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه، ولقد رأيته يحمل الخشب بنفسه لأجل الاحراق، وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى الرملة ثم خرج إلى لد، وأشرف عليها وأمر باخرابها وإخراب قلعة الرملة، ففعل ذلك، وفي يوم السبت ثالث

عشر رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لاحضار ما يحتاجون إليه ، ودار السلطان حول النطرون وهي قلعة منيعة، فأمر باخرابها، وشرع الناس في ذلك.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الانكتار، وهو من أكابر ملوك الافرنج، سير رسوله إلى الملك العادل يطلب الاجتماع به، فأجابه إلى ذلك، واجتمعا يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة وتحادثا معظم ذلك النهار، وانفصلا عن مودة أكيدة، والتمس الانكتار من العادل أن يسأل السلطان أن يجتمع به فذكر ذلك العادل للسلطان فاستشار أكابر دولته في ذلك، ووقع الاتفاق على أنه إذا جرى الصلح بيننا يكون الاجتماع بعد ذلك، ثم وصل رسول الانكتار وقال إن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودّتك وأنت تذكر أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس، وأطال الحديث في ذلك فأجابه السلطان بوعد جميل، وأذن له في العود في الحال، وتأثر لذلك تأثراً عظيماً.

قال ابن شداد: وبعد انفصال الرسول قال لي السلطان: متى صالحناهم، لم نأمن غائلتهم ولو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر، وتقوى الفرنج، والمصلحة أن لا نزول عن الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه، وإنما غلب على الصلح.

قال ابن شداد: ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح، وأطال القول في ذلك، فتركته إذ لا حاجة إليه، وجرت بعد ذلك وقعات أضربت عن ذكرها لطول الكلام فيها، وحاصل الأمر أنه تم الصلح بينهم، وكان الانجاز يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ونادى المنادي بانتظام الصلح وأن البلاد الإسلامية والنصرانية

واحدة في الأمن والمسالمة، فمن شاء من كل طائفة أن يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف ولا محذور، وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من المسرة مالا يعلمه إلاّ الله تعالى، وقد علم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاته وايثاره، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة في علم الله تعالى فإنه اتفقت وفاته بعد الصلح، فلو اتفق ذلك في أثناء وقعاته، كان الاسلام على خطر.

ثم أعطى العساكر الواردة عليه من البلاد البعيدة برسم النجدة دستوراً، فساروا عنه وعزم على الحج لما فرغ باله من هذه الجهة، وتردد المسلمون إلى بلادهم وجاؤوا هم إلى بلاد المسلمين، وحملت البضائع والمتاجر إلى البلاد، وحضر منهم خلق كثير لزيارة القدس، وتوجه السلطان إلى القدس ليتفقد أحوالها، وأخوه الملك العادل إلى الكرك، وابنه الملك الظاهر إلى حلب، وابنه الأفضل إلى دمشق، وأقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية، وانقطع شوقه عن الحج، ولم يزل كذلك إلى أن صح عنده سير مركب الانكتار متوجهاً إلى بلاده في مستهل شوّال، فعند ذلك قوي عزمه على أن يدخل الساحل جريدة يتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ويدخل دمشق ويقيم بها أياما قلائل، ويعود إلى القدس، ومنه إلى الديار المصرية.

قال شيخنا ابن شداد: وأمرني بالمقام في القدس إلى حين عوده لعمارة مارستان أنشأه به، وتكميل المدرسة التي أنشأها فيه، وسار منه ضاحي نهار الخميس السادس من شوّال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ولما فرغ من افتقاد أحوال القلاع وإزاحة خللها، دخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشر شوّال، وفيها أولاده:الملك الأفضل، والملك الظاهر والملك الظافر مظفر الدين الخضر المعروف بالمشمر، وأولاده الصغار، وكان يحب البلد

ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد، وجلس للناس بكرة يوم الخميس السابع عشر منه وحضروا عنده وبلوا شوقهم منه، وأنشده الشعراء ولم يتخلف أحد منهم عنه من الخاص والعام، وأقام ينشر جناح عدله، ويبطل سحاب انعامه وفضله، ويكشف مظالم الرعايا، فلما كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر لأنه لما وصل إلى دمشق، وبلغه حركة السلطان أقام بها ليتملى بالنظر إليه ثانيا، وكأن نفسه كانت قد أحست بدنوّ أجله، فودعه في تلك الدفعة مرارا متعددة، ولما عمل الملك الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى بلده وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة، وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه، وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني، ولما تصفح الملك العادل أحوال الكرك، وأصلح ما قصد اصلاحه سار قاصداً إلى البلاد الفراتية، فوصل إلى دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه، وأقام يتصيد حوالي غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد حادي عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده، ويتفرجون في أراضي دمشق، ومواطن الصبا وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل وكان ذلك كالوداع لأولاده، ونسي عزمه إلى مصر، وعرضت له أمور أخر وعزمات غير ما تقدم.

قال ابن شداد: ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته، وكان شتاء عظيماً، ووحلا شديداً، فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين، وكان الوصول إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة، وركب السلطان لتلقي الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر، وكان ذلك آخر ركوبه، ولما كان ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، وما تنصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت

في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت متكسلاً عليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو قلقه في الليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل، ولم يكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف، ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ السماط، وابنه الملك الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وما كانت لي قوّة في الجلوس استيحاشاً له وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه، ثم أخذ المرض يتزايد من جسده، ونحن نلازم التردد طرفي النهار، وندخل أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضرا ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع، فاشتد مرضه، وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلب عليه اليبس، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل المرض يتزايد ويغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت له غشية، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق، وعلا الناس من الكآبة والحزن مالا يمكن حكايته، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين، وحصل من الحقن بعض الراحة، وفرح الناس بذلك، ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء، ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس، ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله، منذ فقد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وغشي القلعة والبلاد والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوّز

والترخص إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء، وغسله الدولعي.

قلت: الدولعي المذكور هو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن يزيد بن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل الثعلبي الأرقمي الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق، توفي ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وسئل عن مولده فقال: في سنة سبع وخمسمائة، ثم ذكر غير هذا، والله أعلم ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: وأخرج بعد صلاة الظهر رحمه الله تعالى على تابوت مسجى بثوب فوطة، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وأخذ الناس في البكاء والعويل وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم أطال ابن شداد القول في ذلك فحذفته خوفاً من الملالة، وأنشد في آخر السيرة بيت أبي تمام الطائي وهو:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

رحمه الله تعالى وقدس روحه، فلقد كان من محاسن الدنيا وغرائبها.

وذكر سبط ابن الجوزي في تاريخه في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما مثاله: وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر، فنزل البركة قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوداعه، وأنشده الشعراء أبياتا في الوداع فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيمة:

تمتـــع مـــن شميـــم عـــرار نجـــد
فما بعـــد العشيـــة مـــن عـــرار

فطلب القائل فلم يوجد ، فوجم السلطان وتطير الحاضرون، فكان كما قال: فإنه اشتغل ببلاد الشرق، والفرنج ولم يعد بعدها إلى مصر.

قلت: وهذا البيت من جملة أبيات في الحماسة في باب النسب.

وذكر شيخنا عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير هذه القضية على صورة أخرى فقال: ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز عن القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر، وعنده أعيان دولته، والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودع له وسائر معه وكل واحد منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد هذا البيت، فانقبض صلاح الدين وتطير بعد انبساطه، وتنكر المجلس على الحاضرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة.

وذكر ابن شداد أيضاً في أوائل السيرة أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلاّ سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرماً واحداً ذهبا صوريا، ولم يخلف ملكا لاداراً ولا عقاراً ولابستانا ولاقرية ولا مزرعة.

وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: «(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد

قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المغمدة مالا يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء، وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يايوسف لمحزونون، وأما الوصايا مما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها ، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلاّ شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام».

قلت: لله دره فلقد أبدع في هذه الرسالة الوجيزة مع ما تضمنته من المقاصد السديدة في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الإنسان عن نفسه.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من أولاده المذكورين، وهم الأفضل والظاهر، والعزيز في ترجمة مستقلة، وعينت تاريخ مولده وموته سوى الملك الظافر المشهور بالمشمر فإنى لم أذكر له ترجمة مستقلة، وقد ذكرته ههنا فيحتاج إلى ذكر شيء من أحواله فأقول: لقبه مظفر الدين وكنيته أبو الدوام وأبو العباس الخضر، وإنما قيل له المشمر لأن أباه رحمه الله تعالى لما قسم البلاد بين أولاده الكبار، قال: وأنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده بالقاهرة في سنة ثمان وستين وخمسمائة في خامس شعبان، وهو شقيق الملك الأفضل، وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف ابن الملك العادل، ولم يكن الأشرف يومئذ ملكا، وإنما كان مجتازا بها عند دخوله بلاد الروم لأجل الخوارزمية.

قال غير ابن شداد: ثم إن السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بقي مدفونا بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة، التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قلت: ولقد دخلت هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترحمت عليه، وأحضر لي القيم ومتولي القبة بقجة فيها ملبوس بدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير، ورأس كميه باسود فتبركت به.

قال: ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء، وكان الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ورتب عنده القراء ومن يخدم المكان، ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان المقدم ذكره لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بني إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية، ووقف عليها وقفا جيداً، وللقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة، وهي من أعيان مدارس دمشق، وزرت قبره في أول ساعة من رمضان سنة ثمانين وستمائة، فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته ما مثاله« اللهم فارض عن تلك الروح وافتح له أبواب الجنة فهي آخر ما كان يرجو ه من الفتوح» وذكر قيم المكان أن هذا من كلام القاضي الفاضل.

قلت: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية، لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء،فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة نجم الدين الخبوشاني، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وجعل عليها وقفاً كبيراً، وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاه، ووقف عليها وقفاً طويلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل ابن السلار مدرسة للحنفية، وعليها وقف جيد كبير أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفا على الشافعية، وقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستانا، وله وقف جيد، وله مدرسة بالقدس أيضاً ووقفها كثير

وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية، ولقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي بالقرافة ما تسميها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد لا يقولون أيضا إلا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضا لا يقولون إلا مدرسة المالكية، وهذه صدقة السر على الحقيقة، والعجب أن له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها أيضاً الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة للمالكية أيضاً ولا تعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى به، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريبا من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحن إليهم، وكان يميل إلى الفضائل ويستحسن الاشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيرا ما ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن اسحق الحميرى، وقيل إنها لأبي محمد أحمد بن علي بن خيران العامري، كان أميرا بالمرية من بلاد الاندلس وكان جده خيران من سبي المنصور بن أبي عامر، فنسبت إليه والله أعلم وهي هذه:

وزارني طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تخيل لي
نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول نشو الملك أبي الحسن علي بن مفرج

المعروف بابن المنجم المعري الأصل، المصري الدار والوفاة، وهو في خضاب الشيب، ولقد أحسن فيه وهو:

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا: فكان إذا قال مات الشباب يمسك كريمته، وينظر إليها، ويقول أي والله مات الشباب

وذكر العماد الكاتب الاصبهاني في كتاب الخريدة أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه، كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين:

أيها الغائبون عنا وإن كنـ
ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

وأما القصيدتان اللتان ذكرت أن سبط ابن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد ، فإن إحداهما وازن بها قصيدة صردر المقدم ذكره، وقد ذكرت منها أبياتا في ترجمة الوزير الكندري وأولها:

«أكذا يجازي ودكل قرين»

وقصيدة سبط ابن التعاويذي أولها

إن كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطي برملتي يبرين

والثم ثـرى لـو شـارفـت بي هضبـه
أيـدي المطـي لثمتـه بجفـوني
وأنشـد فـؤادي في الظبـاء معـرضـا
فبغير غـزلان الصريـم جنـون
ونشيـدتي بين الخيـام وإنما
غـالطـت عنهـا بـالظبـاء العين
لـولا العـدا لم أكـن عـن ألحاظهـا
وقـدودهـا بجـوازىء وغصـون
لله مـا اشتملـت عليـه قبـابهم
يـوم النـوى مـن لـؤلـؤ مكنـون
مـن كـل تـائهـة على أتـرابها
في الحسـن غـانيـة عـن التحسين
خـودتـرى قمـر السماء إذا بـدت
مـا بين سـالفـة لها وجبين
غـاديـن مـا لمعـت بـروق ثغـورهـم
إلا استهلـت بـالـدمـوع شـؤوني
إن تنكـروا نفـس الصبـا فـلأنها
مـرت بـزفـرة قلبـي المحـزون
وإذا الـركـائب في الجبـال تلفتـت
فحنينهـا التلفتـي وحنينـي
يـا سلم أن ضـاعـت عهـودي عنـدكـم
فـأنـا الـذي استـودعـت غير أمين
أوعـدت مغبـونـاً فما أنـا في الهوى
لكـم بـأول عـاشـق مغبـون
رفقـا فقـد عسـف الفـراق بمطلـق الـ
ـعبرات في أسر الغـرام رهين
مـالي ووصـل الغـانيـات أرومـه
ولقـد بخلـن علي بـا لماعـون

وعـــلام أشكـــو والـــدمـــاء مطـــاحـــة
بلحـــاظهـــن إذا الـــويـــن ديـــوني
هيهـــات للبيـــض في ودامـــرىء
أرب وقـــد أربـــى على الخمسين
ومـــن البليـــة أن تكـــون مطلبـــي
جـــدوى بخيـــل أو وفـــاء خـــؤون
ليـــت الضنين على المحـــب بـــوصلـــه
لقـــن السماحـــة عـــن صـــلاح الـــديـــن(٩)

وأما القصيدة الثانية فهي قوله

حتـــام أرضـــى في هـــواك وتغضـــب
وإلى متـــى تجنـــي عليّ وتعتـــب
مـــا كـــان لي لـــو لا مـــلالـــك زلـــة
لما مللـــت زعمـــت أني مـــذنـــب
خـــذ في أفـــانين الصـــدود فـــإن لي
قلبـــا على العـــلات لا يتقلـــب
أتظننـــي أضمـــرت بعـــدك سلـــوة
هيهـــات عطفـــك مـــن سلـــوي أقـــرب
لي فيـــك نـــار جـــوانـــح مـــا تنطفـــي
حـــرقـــا ومـــاء مـــدامـــع مـــا تنضـــب
أنسيـــت أيـــامـــا لنـــا وليـــاليـــا
للهـــو فيهـــا والبطـــالـــة ملعـــب
أيـــام لا الـــواشي بعـــد ضـــلالـــة
ولهي عليـــك لا العـــذول يـــؤنـــب
قـــد كنـــت تنصفنـــي المودة راكبـــا
في الحب مـــن اخطـــاره مـــا اركـــب
واليـــوم أقنـــع أن يمـــر بمضجعـــي
في النـــوم طيـــف خيـــالـــك المتـــأوّب

مـــا خلـــت أن جــديـــد أيـــام الصبـــا
يبلى ولا ثـــوب الشبيبـــة يسلـــب
حتـــى انجلى ليـــل الغـوايـــة واهتـــدى
ســاري الــدجى وانجــاب ذاك الغيهــب
وتنــافــر البيــض الحسان فــأعــرضت
عنـــي سعـــاد وأنكـــرتنـــي زينـــب
قـــالـــت وريعـــت مـــن بيـــاض مفـــارقـــي
ونحـــول جسمـــي بـــان منـــك الأطيـــب
إن تنقمـــي سقمـــي فخصرك نـــاحـــل
أو تنكـــري شيبـــي فثغـــرك أشنـــب (١٠)

قلت: لله دره فلقد أجاد في هذ القصيدة كل الإجادة، غير أنه قد ظن أن الشنب بياض الثغر وعليه بنى هذا المعنى حتى تم لـه مقصوده فإنها لما عيرته بالسقم قابلها بنحول الخصر فقال لها إن كنت نحيلا فخصرك أيضا نحيل، فلما أنكرت شيبه قابلها بأن ثغرها أشنب، فكأنـه قال لها بياض شيبي في مقابلة ثغرك الأشنب، وليس الأمر كما ظن، فإن الشنب في اللغة ليس هو البياض، وإنما هو حدة الاسنان، ويقال بردها وعذوبتها والصحيح أنه حدتها، وهو دليل على الحداثة لأن الاسنان في أوّل طلوعها تكون حادة، فإذا مرت عليها السنون احتكت وذهبت حدتها، وهذا المعنى ينظر إلى قول النابغة الذبياني في جملة قصيدته المشهورة وهو:

ولا عيـــب فيهـــم غير أن سيـــوفهـــم
بهن فلـــول مـــن قـــراع الكتـــائب (١١)

وقد تقدم ذكر هذا البيت في ترجمة عروة بن الزبير فيكشف هناك، ومثله أيضا ما أنشدني بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب المقدم ذكره لنفسه من جملة أبيات وهو قوله:

مـــا فيـــه مـــن عيـــب ســـوى
فتـــور عينيـــه فقـــط (١٢)

رجع وقوله:

يـا طـالـب بعـد المشيـب غضـارة
مـن عيشـه ذهـب الـزمـان المذهـب
أتـروم بعـد الأربعين وعـدهـا
وصـل الـدمـى هيهـات عـز المطلـب
لـولا الهوى العـذري يـا دار الهوى
مـا هـاج لي طـربـاً وميـض خلـب
كـلا ولا استجـديـت أخـلاق الحيـا
وندى صـلاح الـديـن هـام صيـب (١٣)

وقـد مـدحه جميـع شعـراء عصره وانتجعـوه مـن البلاد فمنهـم العلـم الشاتاني واسمه الحسن، وقد تقدم ذكر مدحه بقصيدته الرائية التي أوّلها:

أرى النصر مقـرونـا بـرايتـك الصفـرا
فسروا ملـك الـدنيـا فـأنـت بها أحـرى

ومـدحـه المهذب أبـو حفـص عمـر بـن محمد بـن علي بـن أبي نصر المعروف بابن الشحنة الموصلي الشاعر المشهور بقصيدته التي أوّلها:

سـلام مشـوق قـد بـراه التشـوّق
على جيرة الحي الـذيـن تفـرقـوا

وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران أحدهما:

وإني امـرؤ أحببتكـم لمكـارم
سمعـت بها والأذن كـالعين تعشـق

وقد أخذه من قول بشار بن برد المقدم ذكره وهو:

يـا قـوم أذني لبعـض الحي عـاشقـة
والأذن تعشـق قبـل العين أحيـانـا (١٤)

والبيت الثاني من قصيدة ابن الشحنة قوله:

وقـــالـــت لي الآمـــال إن كنـــت لاحقـــا
بـــأبنـــاء أيـــوب فـــأنـــت الموفـــق

ومما قيل فيه لبعض أهل المشرق:

الله أكبر جـــاء القـــوس بـــاريها
ورام أسهـــم ديـــن الله راميهـــا
فكـــم لمصر على الأمصـــار مـــن شرف
بـــاليـــوسفين فهـــل أرض تـــدانيهـــا
فبـــابـــن يعقـــوب هـــزت جيـــدها طـــربـــا
وبـــابـــن أيـــوب هـــزت عطفهـــا تيهـــا
قـــل للملـــوك تخلي عـــن ممـــالكهـــا
فقـــد أتـــى آخـــذ الـــدنيـــا ومعطيهـــا

فلما أنشدها إياه أعطاه ألف دينار، ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي، وابن المنجم ، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي وابن البحراني الإربلي، وابن دهن الخصى الموصلي، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان الخيراني، وغير هؤلاء وقد ذكرت أكثر هؤلاء الجماعة في هذا التاريخ، وعذري في تطويل هذه الترجمة قول المتنبي:

وقـــد أطـــال ثنـــائي طـــول لابســـه
إن الثنـــاء على التنبـــال تنبـــال[١٥]

التنبال الرجل القصير، وهو بكسر التاء المثناة من فوقها، وبعدها نون ساكنة، وباء موحدة، وبعد الألف لام.

قلت: وقد تقدم في هذه الترجمة عند ذكر إرسال العاضد إلى صلاح الدين، وطلبه إياه ليخلع عليه ويوليه الوزارة ذكر المثل المشهور، وهو أردت عمراً و أراد الله خارجة، وقد يقف عليه من لا يعرف سبب هذا المثل ولا المراد منه، فأحببت أن أشرحه كيلا يحتاج من يقف عليه إلى

كشفه من مكان آخرة أقول: عمراً المذكور هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، كنتيه أبو عبد الله، وقيل أبو محمد أحد الصحابة رضي الله عنهم، أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة، ومكة فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من هذه السنة ، وقيل بل أسلم بين الحديبية وخيبر، والأوّل أصح، وقدم هو وخالد بن الوليد المخزومي، وعثمان بن طلحة القرشي العبدري على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة مسلمين ، فلما دخلوا عليه ونظر إليهم قال للصحابة: قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها، وقال الواقدي: قدم عمرو بن العاص سلما على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلم عند النجاشي ملك الحبشة، وقدم معه عثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد فقدموا المدينة في صفر سنة ثمان من الهجرة، وقيل إنه لم يأت من أرض الحبشة إلا معتقداً الاسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك، فوالله إنه لرسول الله حقا، قال: أمتحقق ذلك؟ قال: أي والله فأطعني، فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية إلى الشام يدعو أخوال أبيه إلى الاسلام فبلغ السلاسل من بلاد قضاعة، وهو ماء بأرض جذام، وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، وكان معه مائة رجل، فخاف عمرو فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فأمده بجيش مائتي فارس من المهاجرين والأنصار وأهل الشرف منهم : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم وإنما أنتم مددي، فقال أبو عبيدة بل أنت أمير من معك، وأنا أمير من معي فأبى عمرو فقال أبو عبيدة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليّ إذا قدمت على عمرو فتطاوعاً ولا تختلفا فإن خالفتني أطعتك،قال عمرو،فإني أخالفك فسلم إليه أبو

عبيدة وصلى خلفه في الجيش كله، وكانوا خمسمائة، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على عثمان، وفي سنة إثنتي عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان الأموي، وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى الشام وسار إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق، وأوّل شيء فتحه من الشام بصرى صلحاً، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، واستخلف عمر رضي الله عنه أبا عبيدة فولي الجيش، وفتح الله تعالى عليه الشام، وولى يزيد بن أبي سفيان على فلسطين وهي كورة قصبتها الرملة، ولما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، ومات معاذ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان، ومات يزيد، فاستخلف أخاه معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه عمر رضي الله عنه بعهده على ما كان عليه أخوه يزيد وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس في سنة ثمان عشرة من الهجرة، وعمواس بفتح العين المهملة والميم، وفي آخرها سين مهملة وهي قرية بالشام بين نابلس والرملة، وكان الطاعون بها في العام المذكور، وقيل بل مات يزيد بن أبي سفيان في ذي الحجة من سنة تسع عشرة بدمشق ، والله أعلم وذلك بعد فتح قيسارية، وكان عمر رضي الله عنه قد ولى عمرو بن العاص بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن، وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء، وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص ، ثم جمع الشام كلها لمعاوية، وكتب إلى عمرو فسار إلى مصر فافتتحها في سنة عشرين للهجرة، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر رضي الله عنه، فأقره عثمان رضي الله عنه أربع سنين أو نحوها، ثم عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان أخا عثمان من الرضاعة فاعتزل عمرو بن العاص في ناحية فلسطين، وكان يأتي المدينة أحيانا، فلما قتل عثمان رضي الله عنه سار إلى معاوية باستجلاب معاوية إياه، وشهد صفين مع معاوية، وكان منه في صفين و قضية التحكيم ما هو مشهور عند أهل العلم بهذا الفن، وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر يوليه

مصر، وكتب إليه في بعض الأيام يطلبها من معاوية:

معـــاوي لا أعطيـــك دينـــي ولم أنـــل
بـــه منـــك دنيـــا فـــانظـــرن كيـــف تصنـــع
فـــإن تعطنـــي مصرا فـــاربـــح بصفقـــة
أخـــــذت بها شيخـــــا يضر وينفـــــع

ثم ولاه معاوية مصر، ولم يزل بها أميرا إلى مات يوم عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين، وقبل سنة إحدى وخمسين، والأول أصح ، وعمره تسعون سنة، ودفن بسفح المقطم، وصلى عليه ابنه عبد الله ، ولما رجع صلى بالناس العيد، ثم عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص، وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان، فمات عتبة بعد سنة أو نحوها، فولى معاوية مسلمة بن مخلد، وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، وكان من الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي، وكان عمر رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه، قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد، يريد الأضداد.

وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له: يا أبا عبد الله كنت أسمعك كثيراً تقول: وددت لو رأيت رجلاً عاقلاً حضرته الوفاة حتى أسأله عما يجد، فكيف تجد؟ فقال: أجد كأن السماء مطبقة على الأرض، وكأني بينهما، وكأنما أتنفس من خرم إبرة، ثم قال: اللهم خذ مني حتى ترضى، فدخل عليه ولده عبد الله فقال له: يا ولدي خذ لك الصندوق، قال: لاحاجة لي به فقال إنه مملوء مالاً، فقال: لاحاجة لي به، فقال: ليته مملوء بعراً، ثم رفع يديه وقال اللهم إنك أمرت فعصينا، ونهيت فارتكبنا، فلابريء فاعتذر، ولا قوي فانتصر، ولكن لا إله إلاّ أنت، ثم فاض.

قلت: يقال فاض وفاظ بالضاد والظاء أي مات، قال الشاعر:
لا يـــدفنـــون منهـــم مـــن فـــاضـــا

فأما خارجة المذكـور في هذا المثل فإنه خارجة بن حذافـة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويـج بن عدي بن كعب القرشي العدوي، شهد فتح مصر، وكـان أمير ربع المدد الذين أمد بهم عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه عمرو بـن العاص في فتـح مصر، واختط بمصر، وكـان على شرطة مصر في إمرة عمرو بن العاص لمعـاوية بن أبي سفيان الأموي، قتله خارجـي بمصر سنة أربعين للهجرة، وهو يحسـب أنه عمرو بـن العاص، وهكذا قاله ابن يونس في تاريخ مصر.

وذكـره في كتـاب الاستيعـاب لابـن عبـد البر وسـاق نسبـه على هـذه الصورة ثـم قال: يقال إنـه كان يعد بـألف فـارس، ثم ذكر بعـض أهل النسب والأخبـارأن عمرو بـن العاص كتـب إلى عمر رضي الله تعـالى عنه يستمـده بثلاثـة آلاف فارس، فـأمـده بخارجـة بـن حذافـة، والزبير بـن العوام، والمقـداد بن الأسود الكندي، وشهـد خارجة فتح مصر، وقيـل إنه كان قـاضيا لعمر و بـن العاص بها، وقيل إنـه كان على شرطة عمـرو بن العاص، ولم يـزل بها إلى أن قتل قتلـه أحد الخوارج الثـلاثة الـذين كـانوا انتدبـوا لقتل علي بـن أبي طالـب رضي الله عنه ومعـاوية بـن أبي سفيان وعمرو بن العاص فأراد الخارجي قتل عمـرو فقتل خارجة هذا وهو يظنه عمراً، وذلـك أنه كان قد استخلفـه عمرو بن العاص على صـلاة الصبح ذلك اليوم، فلما قتلـه أخذ وأدخل على عمرو بن العاص، فقـال: من هذا الذي أدخلتمـوني عليه؟ فقالـوا: عمرو بـن العاص، فقال: ومـن قتلت؟ فقالـوا :خارجـة، فقال: أردت عمراً وأراد الله خـارجة، وقيـل إن الخارجي الـذي قتلـه لما أدخـل على عمـرو قـال لـه عمـرو: أردت عمـراً وأراد الله خارجـة، والله أعلم بمـن قال ذلـك منهما، والذي قتـل خارجـة هذا هـو رجل مـن بني العنبر ابن عمـرو بن تميم يقال لـه دادويه، وقيل إنـه مولى

لبني العنبر، وقد قيل إن خارجة الـذي قتله الخارجي بمصر على أنه عمرو ابن العـاص رجل يسمى خـارجة من بني سهـم رهط عمرو بـن العاص، وليس بشيء انتهى ما قاله صاحب الاستيعاب.

وقال غيره إن عمرو بـن العاص أصابه شيء في بطنه فتخلـف في منزله تلـك الليلة، وكـان خارجـة يعشي النـاس فضربه الخارجـي فقتله، وكـان عمرو يقول: ما نفعني بطني قط إلا تلك الليلة.

قلت: فهـذا أصل المثـل في قولهم: أردت عمـراً وأراد الله خارجـة وإلى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في قصيدته التي رثى بها بني الأفطس ملوك بطليوس التي أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر بقوله:
وليتهـــا إذ فـــدت عمـــراً بخـــارجـــة
فـــدت عليـا بمـــن شـاءت مـــن البشر (١٦)

وهي من غرر القصائد جمعت تـاريخاً كبيراً، وشرحها الأديب أبو مروان عبد الملك بـن عبد الله بن بدرون الحضرمي الاشبيلي شرحا مستـوفيا، وهذا البيـت يحتاج إلى شرح أيضـا وهـو من تتمـة الكـلام على المثل المذكـور لكننـي أذكره مختصراً فـإنه طـويل ، ذكـر أهل التـاريخ، أن علي بـن أبي طالـب رضي الله عنه لما بويـع بالخلافة في اليـوم الذي قتل فيـه عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج عليه من قاتلـه في وقعة الجمل، وقد ذكرت طرفا من هذه الـوقعة في ترجمة يموت بـن المزرع ساقها الكلام هنـاك، فذكرت المقصود منـه، ثم كانـت وقعة صفين عند خـروج معاوية بـن أبي سفيان الأمـو ،عمـرو بـن العاص على عليّ بـن أبي طـالـب رضي الله عنهـم، فتـوجه . هـم مـن العراق وجـاؤوه مـن الشـام والتقوا على صفين، وهـو موضـع على شاطـىء الفرات بـالقرب مـن الرحبـة، وهي وقعـة مشهورة، وكانت في سنة سبـع وثلاثين من الهجرة، ولما غلب أهل الشـام طلبوا من

علي بن أبي طالب رضي الله عنه التحكيم، فأجابهم بعد معاودات كثيرة فخرج على عليّ جماعة من أصحابه، وقالوا : حكمت في دين الله، و لا حكم إلاّ لله، ورحلوا إلى النهروان، فمضى إليهم وقاتلهم، واستأصلهم إلاّ اليسير منهم، وهي أيضا وقعة مشهورة بقتال الخوارج، ولما طال الأمر في ذلك اجتمعوا وقالوا: إن عليا ومعاوية وعمرو بن العاص قد أفسدوا أمر هذه الأمة، فلو قتلناهم لعاد الأمر على حقه، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي أنا أقتل عليا، قالوا، فكيف لك بذلك؟ قال: أغتاله، وقال الحجاج بن عبد الله الصيرمي:أنا أقتل معاوية، ويعرف هذا الصيرمي بالبرك، وقال دادويه وقيل زادويه، وقد تقدم الكلام عليه في الكلام على خارجة بن حذافة: أنا أقتل عمراً واجمعوا أمرهم على أن يكون ذلك في ليلة واحدة، فدخل ابن ملجم الكوفة وعلي رضي الله عنه بها، واشترى سيفا بألف درهم فسقاه السم حتى لفظه، فلما خرج عليّ لصلاة الصبح كان ابن ملجم قد كمن له فضربه به على رأسه، وقال: الحكم لله يا علي لا لك، وقيل إنه ضربه في صلاة الصبح، وذلك في صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان في سنة أربعين من الهجرة، وقيل غير هذا التاريخ، وقدم البرك الصيرمي على معاوية بدمشق فضربه فجرح إليته، وهو في الصلاة، ويقال إنه قطع عرق النسل، فما أحبل بعدها، وأما عمرو فقد سبق الكلام عليه عند قتل خارجة، وهذا تفسير المثل والبيت الشعر على سبيل الاختصار والله أعلم.